

عبود

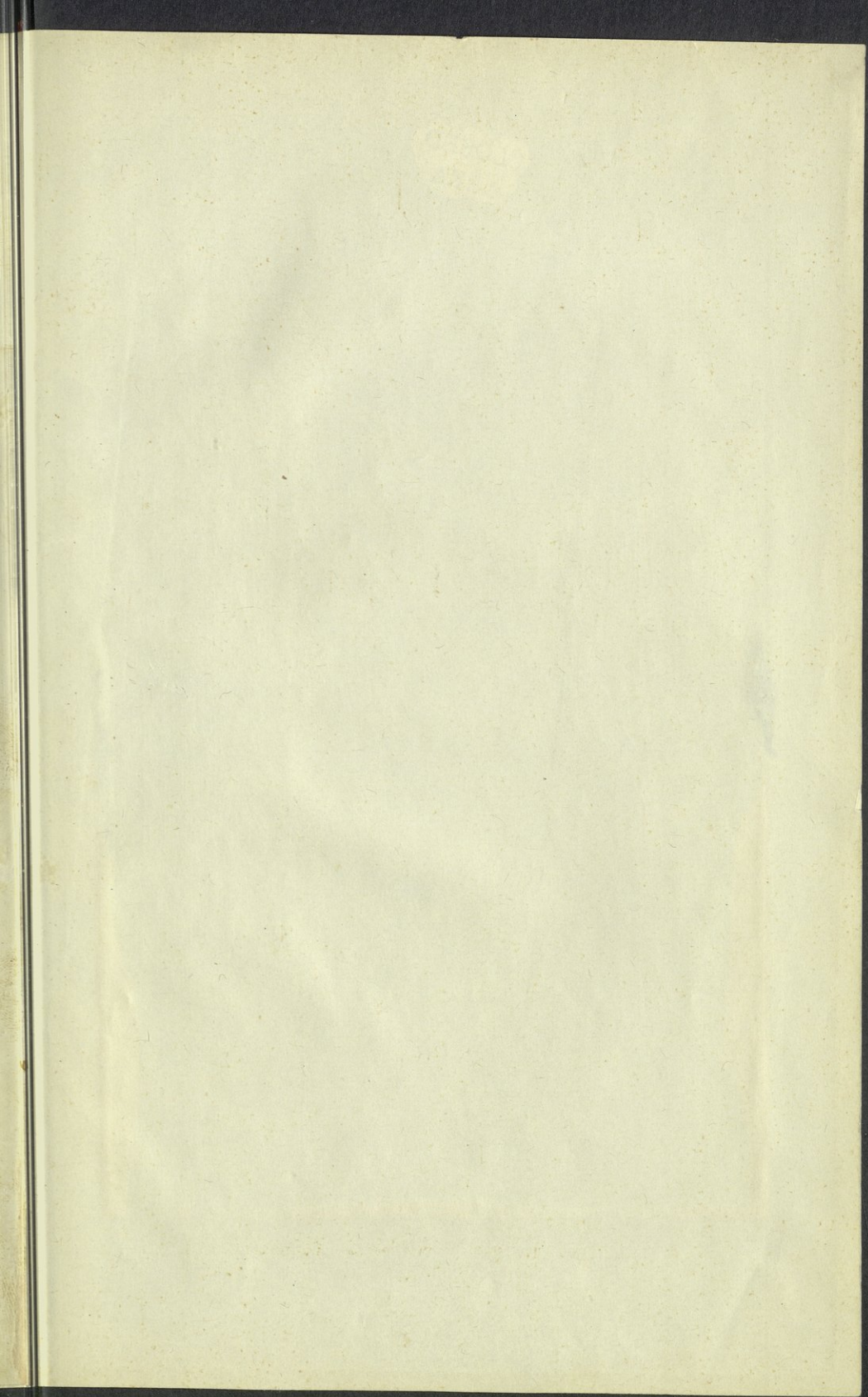
بديع الزمان الهمداني

A. U. B. LIBRARY

تجليد صالح الدقر
٢٢٠٧٧ تلفون



10
11
12



بيع الزمان الهزلي

فیه

892-78

H198YabA

نوابغ الفكر العربي

٩

بيع الزمان الهندي

بمقل مَارُون عَبُود

قريحة وقادة وبصيرة نفاذة
وذخيرة من الأدب فياضة ألهمت
صاحبها بآثار روائع فنسب
إلى فلتات الزمان وبدائع الدهر.



دار المعارف ببيروت

الفصل الأول

عصر بديع الزمان

١ - الحالة السياسية

سئل أحد الساسة الأتراك : متى ابتدأت انكسارات الدولة العثمانية ، فأجاب : منذ أول انتصار . ثم فسّر جوابه هذا بقوله : لأنها لم تفرض لغتها على المغلوبين .

أما الدولة العربية فهي بالعكس . أخفقت في السياسة والحكم ، وبفضل القرآن الكريم انتصرت في الدين واللغة انتصاراً لا مثيل له في تواريخ الأمم والشعوب . ما شبّت الدولة عن الطوق^(١) حتى دبّ الاضطراب إلى سياستها ، فنذ بيعة أبي بكر أبدت الفتنة أذنيها ، وكان في كل عهد مرتدّون ، وثوّار ، وخوارج ، فلا يخمد السلطان النار في جهة حتى تضطرم في ناحية أخرى ، وحسبك أن الخلفاء الراشدين الصالحين الأربعة لم يمت أحد منهم حتف أنفه^(٢) غير أبي بكر الصديق . ثم لم تخضع الديار الإسلامية كلها لسلطان واحد إلا في زمن الأمويين .

ولما حُسم القضاء عليهم وهزم مروان الجعدي ، وآل الملك إلى بني العباس نبتت على الأثر دولة أموية جديدة في الأندلس تركت في العالم القديم ما أثر

(١) الطرق حلّ للعنق . وشبّ عن الطرق : نما وكبر . قاله جديمة في ابن أخته عمرو ابن عدى وقصة ذلك أن عمراً لما ترعرع كان يخرج مع الخدم يجتنبون للملك الكأفة فخرج يوماً وعليه حلّ وثياب فققد زماناً فلما وجد بعث به إلى أمه فأدخلته الحمام وألبسته وطرقته طرقاً كان له من ذهب فلما رآه جديمة قال : شبّ عمرو عن الطرق .

(٢) مات حتف أنفه : مات من غير قتل ولا ضرب بل على فراشه . قال السموول :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل يوماً حيث كان قتيل

عزّ نظيرها حضارةً وعلماً وعمراناً ، حتى قال أحد المؤرخين الغربيين في عبد الرحمن الناصر : إنه ملك يصلح لسياسة أعظم دولة في القرن العشرين .
والرشيد الذي قال للغمامة : أمطري حيث شئت فإن خراجك يأتي ،
لم يسلم عهده الذهبي من تفسّخ . ففي زمن ولايته أنشأ العلويون دولة جديدة في المغرب الأقصى عرفت بالدولة الإدريسية . وأراد هارون أن يتقى شرها ، على بعد المزار ، فعمل ما تعمله الدول اليوم ، فأنشأ إمارة بني الأغلب في إفريقيا . وعلى خطة الرشيد درج ابنه المأمون فأقطع قائده طاهر بن الحسين خراسان ، فكانت إمارة بني طاهر التي دامت زهاء خمسين سنة وأكثر .

ثم أخذ الضعف يدبّ في جسم الدولة رويداً رويداً ، فنشأت دول أكبر وأخطر ، فكانت الدولة الصفارية في فارس ، ثم السامانية التي أزاحتها عن تخومها واستولت على فارس وما وراء النهر . وظهرت الدولة الزيارية في جرجان ، ثم كانت الدولة البويهية التي لم تكتف بفارس بل بسطت سلطانها على العراق أيضاً ، وغلبت الخليفة على أمره حتى لم يبق له من الملك إلا الاسم ، بل شاركه بعضهم في خطبة الجمعة .

هذا ما آلت إليه الدولة العباسية في القرن الرابع الذي هو قرن المقامات والنثر المنمّق . كان الخليفة في هذا العصر يُؤمر فيُطيع ، ولم يعد له من رقعة الدولة الواسعة غير بغداد ، بل بغداد نفسها كانت معرضة دائماً لغارات هؤلاء الملوك الذين استقل كل واحد منهم بمقاطعة ، بل بالعاصمة نفسها ، وحجر على الخليفة وعيّن له مبلغاً من المال لنفقته .

ومن طالع التواريخ رأى أن أعمار الخلفاء لم تبق بيد الله كما نقول ، بل صارت بيد خدامهم ، فهم الذين يعزلون خليفة ويولون آخر ، ومن عصى فالعصا . ففي أثناء أربعة عشر عاماً — من سنة ٣٢٠ إلى ٣٣٤ — نصبوا وعزلوا سبعة خلفاء ، منهم من قتل ، ومنهم من سملت عيناه ^(١) . ومنهم من قتل صبراً .

وحاول القاهرة بالله ، أحد خلفاء هذا القرن ، أن يعيد الخلافة جذعة ، فضيقوا عليه وحاصروه في دار الخلافة وفتشوا الداخل عليه والخارج من عنده ، حتى

(١) سمل : فقأ .

أدخل أحمد بن زيرك الذي جعل على حراسته يده في اللبن المحمول إلى الخليفة
لئلا يكون فيه رقعة .

ولما عرف القاهر أنهم عازمون على خلعه تغدأهم قبل أن يتعشّوا به . « ذبح
على بن بليق ووضع رأسه في طشت . ثم مشى ، والطشت أمامه ، حتى دخل
على والده بليق أبي علي فوضع الطشت بين يديه ، وفيه رأس ابنه ، فلما رآه
بكى . ثم أمر بذبح بليق ، فذبح ووضع رأسه في الطشت . وحمل الطشت أمام
القاهر ومشى حتى دخل على مؤنس ، فوضع الرأسين أمامه . فلما رآهما مؤنس تشبّه .
ثم أمر بذبح مؤنس فذبحوه وجعلوا رأسه في طشت . وأمر فطيف بالرؤوس الثلاثة في
جانبى بغداد ، ونُودى : هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى في فساد دولته (١) . »
ولكن كل هذا الإرهاب والتمثيل لم يحل دون خلعه ، فما دامت خلافته
إلا سنة وسبعة أشهر ، وهو أول من سملت عيناه من الخلفاء . ويقال إنه كان
يستعطى في آخر أيامه .

وكثيراً ما صاروا في هذا العصر يُصِفُون مال الخليفة ويتركونه صفر اليدين .
وأخيراً صار الحكم فريسة القوى المستأسد ، فكل من رأى في نفسه قوة استبد
بمقاطعة وأقام نفسه ملكاً عليها . كان لقب « الحضرة » مختصاً ببغداد ، أما في
هذا القرن الذى نلّم بفذلكة من تاريخه السياسى فأصبح في كل بلد « حضرات »
وكثرت الألقاب ، فمن يمين الدولة إلى عضدها ، ومن ملك الملوكة إلى الشاه
والشار ، إلى السلطان ، فصحّ فيها ما قيل في الأندلس :

ألقاب مملكة في غير موضعها كاهر يحكى انتفاخاً صورة الأسد

ولا عجب أن سمى المتنبى هذه الحقبة من الزمن دولة الخدم ، فأكثر
هؤلاء كانوا خدماً واستحالوا قواداً ، ثم صاروا ملوكاً . فأصدق وصف للمملكة
العربية في هذا القرن ، هو ما قاله فيها أبو الطيب ابن ذلك القرن :

بكل أرض وطئتها أمم
تسرعى بعيد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه
وكان يهبرى بظفره القلم

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عربٌ ملوكها عَجَمٌ
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهدٌ لهم ولا ذمٌ
وقال أيضاً في هؤلاء معللاً نفسه بإحدى الممالك مثلهم :

لأتركنَّ وجوهَ الخيلِ ساهمةً والحربُ أقومُ من ساقٍ على قدمٍ
بكلِّ منصلتٍ ما زال منتظري حتى أدلتُّ له من دولةٍ الخدمِ

ولماذا لا يعلل نفسه بالسلطان عبقري كالمُتنبّي بعد ما رأى الثورات تلي الثورات والغزوات تلي الغزوات ، خليفة يقتل ليوائى غيره ولاية اسمية . أما الفعل والسلطان ففي يد مَنْ وصفهم المتنبّي . كان الخلفاء قابعين في قصورهم يتلمّسون رؤوسهم كل مساء وكل صباح ليروا ألا تزال في مواضعها أم طاح بها أحد مواليمهم وخدامهم . وكما كانت الدولة مقسمة في العراق وفارس كقطع الشطرنج ، كذلك كان الأمر في جميع الأقطار ، فهنا ملك الحمدانيين وهناك ملك الإخشيديين إلى آخر ما هنالك من ضروب التوزيع .

ففي هذا العصر امتدّت الأيدي إلى الخلفاء فهانت على الفرس والترك معاطسهم وسبّاهم^(١) . وبعد سكنى القصور التي وصفها ابن الخطيب البغدادي وصفاً كأنه الكذب ، صار الخليفة كواحد من الناس ، مصيره في يد البويهيين والترك ، يتقاتلون في عاصمته ولا يعنيه من الأمر إلا أن يلقّب المتغلب باللقب الذي يقترحه حتى ضُربت السكّة باسم بعض هؤلاء . وهكذا أمسى الخلفاء كما قال الأخطل في بني يربوع قوم جرير :

مخلفون ويقضى الناس أمرهم وهم بغيبٍ ، وفي عمية ما شعروا

أما تاريخ مصير الخلافة فيلخص بما يلي : كلما قوى واحد في هذا العصر عنا له الخليفة وخلع عليه . لقب محمد بن طغج بالإخشيد أى ملك الملوك . ولقب بعده ابن رائق بأمرير الأمراء وأمر أن يخطب له على المنابر ، ثم فاض نهر الألقاب حتى صار أخيراً كل أمير مستقل يلقّب نفسه . ومن يسأل عن خليفة

(١) المعاطس : جمع معطس وهو الأنف . والسبّال : جمع سبلة وهي مقدم اللحية . وهذا التعمير كناية عن الذل والهوان .

أعزل ، لا مال ولا رجال !! أما هؤلاء الأمراء والملوك ، أو السلاطين المستقلون فكثيراً ما كانوا يذهبون ضحايا بعضهم بعضاً ، ومن عزّ بز^(١) . كما أن الخلفاء أمسوا يُحبسون ويُقتلون صبراً كما فعل معزّ الدولة بالمستكني .
وأخيراً صار أمر الخلافة في أدنى الدركات فسلبوهم كل سلطانهم ، ولم يتركوا للخليفة وزيراً ، ما بقي له غير كاتب يدير أملاكه .
ومن يستغرب ، بعد هذا ، قول المتنبي لسيف الدولة :

ويا عجباً من دائل أنت سيفه^١ أما يتوقّى شفرتي ما تقلّد
ومن جعل الضرغام للصيد بازه تصيده^٢ الضرغام فيما تصيد

وينبئنا التاريخ أن سيف الدولة حاول امتلاك بغداد ولكنه لم يفلح ، فعاد إلى مستقره وأنشأ « حضرة » تضاهي حضرة بغداد في أيام عز الخلافة .
حقاً إننا في عصر صار كله « حضرات » كما قلنا ، وصح في حكامه قول الشاعر في الأندلس :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة منها أمير المؤمنين ومنبر

أما أشهر هذه الدويلات ، وأزهرها فكانت دولة السامانيين والبويهيين .
كان كل هؤلاء الملوك أو أشباه الملوك يقلدون الخلفاء القدامى ، لا خلفاء عصرهم الذين أمسوا نكرات ، ويطمعون بأن يزيّنوا « حضراتهم » بالشعراء والكتاب والعلماء ، وكل منهم ينافس الآخر . أما رويوا أن عضد الدولة أرسل إلى المتنبي من يسأله : مَنْ أجزل عطاءً أسيف الدولة أم عضد الدولة ؟

وآخر من يعنينا أمره في الربع الأخير من هذا القرن ، هو الناصر لدين الله أبو القاسم محمود بن سبكتكين الذي قضى على الدولة السامانية ثم غزا الهند غزوات كثيرة وامتلك أكثرها . وما سبكتكين هذا إلا واحد من غلمان أبي إسحق البتكين ، قائد جيش غزنة في الدولة السامانية . ولى العسكر لما مات مولاه القائد واستقل بالملك . ولما مات قام بعده ابنه محمود . كان لقبه ، أولاً ، يمين الدولة فأبدل به لقب السلطان حين استبدّ بالأمر ، فكان أول

(١) من عز بز : مثل يضرب للسلب والغلبة .

من لُقِّبَ بالسلطان في الإسلام ، ثم عظم أمره واستولى على خراسان وقطع منها خطبة السامانيين ، وقرض دولتهم .

٢ - الحالة الاجتماعية

ما أشبه الليلة بالبارحة !

كان المال هو الغرض الأول في هذا العصر ، فالخليفة يصفى أموال وزرائه ويقتلهم أو يصلبهم . أما قال أحمد ابن الخطيب وزير المنتصر لما خلع عليه للوزارة : « مَسْكَى مَسْكَى الناقة التي تزيّن للنحر »^(١).

كان الخلفاء يتركون وزراءهم وعمّالهم وولاتهم هملاً كالغنم في المرعى ، حتى إذا ما سمّوا ذبحوهم . وأخيراً جاءت نوبة الخلفاء أنفسهم فصار عمالهم يفعلون بهم كما كانوا يفعلون هم بغيرهم ؛ كما فعل بهاء الدولة البويهى بالطائع حين أخذ ما يملك ثم خلعه . أما وقف القاهر المسمول في جامع المنصور ، وعليه مبطنة بيضاء ، وقال للناس : تصدّقوا على فأنا من قد عرقتم .

أهمل الخلفاء شؤون الدولة الجلى ، وصارت الكلمة في القصور للخدم والنسوان ، وللبجوارى والغلمان . أما قال إسماعيل بن أحمد في غلام له : « يصلح للفراش وللهراش » . وقصة تَمِيل القهرمانه جارية المقتدر ، أما كانت تقعّد للمظالم ، فتعرض عليها شكاوى الخاصة والعامة ، ويحضر مجلسها - محكمتها بلغة اليوم - الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم في حين يكون الخليفة غارقاً في مجلس اللهو والطرب .

قال بشار :

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الرقّ والعود

فقتل بهذا البيت ، أمّا في هذا القرن فصار المحجون والتهتك شيئاً لا يستحى به . وإذا ما قلّ مال الخلفاء والأمراء والولاة فتشوا عن الأغنياء من الرعية وأخذوا أموالهم لينفقوها في قصورهم .

(١) يقال : نحر الناقة وذبح الشاة .

وكثُر في هذا العصر اقتناء السرارى والغلمان فقلما خلا قصر من المئات منهم ومنهن . وهذا صاحبنا المتنبي ينظم قصيدة في رثاء يماك غلام سيف الدولة أو مملوكه ، ولا يتورّع أن يقول فيه :

وإن الذى أُمست نزارٌ عبيدهُ غنى عن استعبادهِ لغريبِ

ولا أذكر لمن قرأت هذا القول : « رغبتى فى الوزارة اقتناء الغلمان » .

وملخص القول أن هذا العصر كان عصر ترف فى القصور والدور ، وهذا الترف جرّ إلى الفتن والحروب والمصادرات وكبس البيوت حتى صارت الثروة خطراً على صاحبها . فما قولك بوزير عنده من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ! أيدع هذا كبيرة أو صغيرة لا يرتكبها فى سبيل ابتزاز الأموال ؟ !
إن هذا الترف الذى رافق الخلافة العباسية منذ هارون حتى صار الخلف يسعى جهده ليفوق السلف ، هو الذى جرّ إلى سقوط الخلافة فى هذا العصر . ثم عارض الخلفاء فى ميدانهم هذا وزراءهم وأمراءهم وعمّالهم ، أما الرعية فكانت كبش التضحية .

فالوزير ابن الفرات كان يستغلّ من ضياعه فى كل سنة ألفى ألف دينار وينفقها . قيل إنه كان لا يأكلُ إلا بملاعق من البلّور ولا يأكل بالملقعة إلا لقمة واحدة . فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملقعة . . .

وهاك هذه الحكاية الطريفة عن الوزير المهلبى : « كان له ندماء يجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على أطراح الحشمة أو التيسط فى القصف والخلاعة وهم : ابن قريعة ، وابن معروف ، والقاضى التنوخى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان الوزير المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ، ولذّ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار^(١) ، وتقلبوا فى أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووضع فى يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها ، مملوءاً شرباً قطربسلياً أو عكبرياً ، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ، ويرش

(١) العقار : الخمر .

بها بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم ، وعليهم المصبغات ومخائق البرم^(١) والمنثور^(٢) .

إن الثروة التي كانت في بيوت هؤلاء تكاد أخبارها لا تصدق . أما الشعب المسكين فكان في كل قطر طريد الفقر والبؤس ، تأكل رغبته الحياة المتكفلون بجمع المكوس والضرائب وليس من يسألهم عما يفعلون . لا يهمهم إلا جمع المال ليدفعوا ما تكفلوا به للولاة ، ويصبحوا هم أغنياء يعيشون كالطبقة العليا . اقرأ رسالة بديع الزمان التي يشكو فيها البختري .

فالحليفة ، أو الإقطاعي الذي استبدّ بقطر من الأقطار ، ورجال هؤلاء وأهلهم ، وأتباعهم ، وأتباع أتباعهم ، أولئك كلهم هم الغارقون في النعيم ، أما الشعب المسكين فكله في جحيم ، وتجي منه الضرائب مثني وثلاث ورباع ، وتنتابه الحجاعات من حين إلى آخر ، فيلجأ إلى سلطان ربما سمع صوت الرعية ورثى لها ، وربما لا . كل هذا توضحه لنا رسائل بديع الزمان .

٣ - الحالة الأدبية

هذا العصر الذي سميناه عصر « الحضرات » تستطيع أن تسميه بحق زبدة الحقب . لقد نكبت فيه الخلافة بمجدها وعزها وأبهرتها ، ولكن الأدب كان له في كل مصر مرتع ، فلا تكاد تضيق مدينة بشاعر أو كاتب أو عالم حتى ينتقل إلى غيرها ليحل فيها على الرحب والسعة . لا بل كان هؤلاء الملوك الصغار يستقدمون إلى « حضراتهم » كبار الشعراء والكتّاب ويستزرونهم . وحادث صاحب بن عباد مع المتنبي مشهور . ثم ألم يستقدمه كافور وابن العميد وعضد الدولة . . . أجل كثر في هذا العصر الملوك والوزراء المتشبهون بالملوك ، فكثرت الرواد من أهل الأدب ورجال العلم ، فنفقت المنتوجات القلمية في أسواق العواصم . . . واشتد التنافس بينهم فأدّى ذلك إلى تنافس الشعراء وكثرت أفكارهم ليأتوا بالبدع . فهذه حضرة سيف الدولة في حلب تتسع لأعظم شعراء

(١) المخائق : جمع مخنقة وهي القلادة . والبرم : ثمر شجر العضاة .

(٢) « يتيمة الدهر » جزء ٢ ص ١٠٦

العصر وكتّابه وعلمائه ، وعلى حضرته هذه قس الحضرات الأخر ، وإن كانت دونها ، كالحضرات السامانية ، والبويهية ، والزيارية ، والغزنوية والسبكتينية حتى الخلفائية . فهذا أحمد بن خلف ، على ضيق رقعة ملكه في سجستان كان معطاء يحب العلم والعلماء حتى قال فيه ابن الأثير المؤرخ : « وكان خلف مشهوراً بطلب العلم وجمع العلماء ، وله كتاب صنفه في تفسير القرآن من أكبر الكتب » . . .

خص « بديعنا » خلفاً هذا بمقامات ورسائل ، وقد يكون هو أول من فتح أبواب الرزق بوجه « الهمداني » حتى صار ملاكاً كبيراً في هراة ، كما يتضح من رسالة كتبها إلى أبيه يدعو إلى الإقامة عنده في هراة قال : « فلم لا ينشط ! والله لا يضيع بذلك المكان درهماً إلا عوضته ديناراً ، ولا يعدم هناك داراً إلا أفدته ديناراً ، أخاف والله أن أموت وفي النفس حاجة لم أقضها ، ومنية لم أحظ ببعضها . لا يفعل سيدنا الشيخ والضح بالولد أولى من الضن بالبلد . وقد رسمت لموصل كتابي هذا أن ينقده مائة دينار بشرط أن يخرج ، وأن يرتب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العم ، فليتفضلاً ، وليقوموا ويرحلا . ويستصحب الأخ أبا سعيد ، وليأتني بأهله أجمعين ، فما يعجبني لقاء ليس له بقاء ، فإن لم يمكن استصحاب القوم فلا يتأخر بنفسه . فسيرد على خمسمائة نيران^(١) وألف أكثار ، وأحوال منتظمة وأسباب مستقيمة » .

أرأيت ما أحرز هذا الأديب من ثروة !! خمسمائة نيران ، أى خمسمائة زوج بقر ، وألف عامل تعمل في أرض « سيدنا » الذى كتب في أول أمره إلى الخوارزمي يعاتبه بما يلي : « الأستاذ أبو بكر ، والله يطيل بقاءه ، أزرى بضيفه إذا وجده يضرب إليه أبواب القلعة في أطمار الغربية ، فأعمل في رتبته أنواع المصارفة ، وفي الاهتزاز له أنواع المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، وإشارة بشرط الكف ، ودفع في صدر القيام عن التمام ، ومضع الكلام ، وتكلف لرد السلام ... ولست مع هذه الحال وفي هذه الأسهل أتقزز صف النعال » .

(١) نيران : جمع نير .

تلك كانت حال الأدباء الموهوبين ، يخرج أحدهم من بلده طريداً شريداً فيرد الحضرات فإذا لم ينفق في بلد يسمّ بلدًا آخر . ويظل على ذلك حتى يجد لبضاعته سوقاً ، فيلبس إذ ذاك الديباج ، ويركب البغلة ، ويقتني العبيد ، ويبتاع الجوارى والغلمان . . . هذا إن لم يصبح وزيراً خطيراً له « حضرة » ينتجعها الأدباء والشعراء ، كما فعل ابن العميد والصاحب ففتحوا للأدب سوقاً كالتي في حلب ومصر ، وكل بلد فيه ملك من هؤلاء الملوك الذين ينافس بعضهم بعضاً في تزيين حضراتهم بالأدمغة الكبيرة والعقول الراجحة والعبقريات النادرة . لقد كان هبوط الخلافة في القرن الرابع ارتفاعاً للأدب ، فلولا هذه الحضرات التي تدفقت منها الأموال كالأنهار لم يبدع الهمداني مقاماته التي كان لها أبعد الأثر في الأدب العربي .

إن عصرًا عملت فيه ألف ليلة وليلة ، وقصة عنتره ، كهو عصر يستحق أن يُسمّى زبدة الحقب ، كما قال أبو تمام في وقعة عمورية . . . ما رأيت عصرًا حفل بالأدباء والعلماء والشعراء كهذا العصر . أليس هو عصر المتنبي ، وابن العميد ، وابن عباد . والحوارزي ، وبديع الزمان ، والتوحيدى ، والصابى ، وابن فارس ، وابن دريد ، والشريف الرضى ، وابن حمّاج ، والثعالبي ، وأبي فراس ، وكشاجم ، والفارابى ، والأصفهاني ، والجوهري ، والزوزنى ، والأشعري ، والعكبرى ، والتهامى ، وابن يوسف ، وابن سينا ، والمعري ، والقالى ، والجرجاني ، والطبرى ، والمسعودى ، والرازى ، وابن النديم ، وابن عبد ربه ، وابن هانئ ، والنابى ، والبيغاء ، والوأواء ، وابن خالويه ، وابن جنّى ، وأبى على الفارسى ؟ !

كان في كل قطر ملوك ، وكان في كل قطر رجال فادّى هذا إلى إنتاج أدبى عظيم لم ير مثله في العصور السابقة . إذا كان في العصور الأولى بضعة عشر عظيمًا ، ففي هذا العصر من عظماء المملكة الأدبية عشرات ما ذكرت منهم إلا الرؤوس .

فابن لنكك الحروم قال الهجاء المرّ كابن الرومى ، وابن حمّاج وابن سكرّة وغيرهم أعادوا عهد أبى نواس في الحجون ، ولولا أننا ننظر إلى آدابنا نظرة

الأثرى إلى « الأنتيكا » لقلت إن هذا العصر خير عصورنا الأدبية في الكمية والكيفية ، ولا أستثنى من القدماء إلا الجاحظ الذي لا يجارى ، وكلهم عيال عليه كما قال فيه ابن العميد .

كان الأدب في هذا العصر صورة صادقة للحياة ، وما المقامات إلا وليدة مظاهر اجتماعية أشار إليها الجاحظ من قبل . إنه البؤس الذي فتق الحيل لابتزاز الأموال ، وإنه فساد الأخلاق الذي دعا البديع إلى تصوير الشذاذ والمتشردين ، كما صور حالة العلماء ومجالسهم ، والأغنياء الحديثي النعمة الذين يريدون مجارة كبار رجال الدولة في قصورهم .

أما الترف والنعم فيصنفه هو وغيره ، ولعل هذا التأنق في الإنشاء هو من وحى صور الحياة الاجتماعية . فهذه الزركشة فيه توفى إلى الحياة الاصطناعية التي كان يحياها المترفون . وبالاختصار كان هذا العصر عصر علم وأدب وشعر وتأليف وفلسفة ، ولا تنس أيضاً أنه عصر الفاطميين ، الذين عمرو العقول بفلسفتهم ونظرياتهم ، والأرض بقصورهم ومبانيهم للحكمة والعلم والتعليم .

الفصل الثاني

بديع الزمان في عصره

١ - حياة بديع الزمان

١ - نشأته :

كنيته أبو الفضل ، ولقبه بديع الزمان ، واسمه أحمد بن الحسين . ولد في همدان واستقرّ في خراسان ، ومات فيها بمدينة هراة سنة ٣٩٨ هـ .
أما لقب بديع الزمان فلست أدري كيف أحرزه . ما أحسب هذا اللقب إلا من صنعه ، أو من صنع صاحب اليتيمة لكي تتمّ له السجعة ويقول : « هو بديع الزمان ، ومعجزة همدان . . . » واتفاق اسمه مع اسم أبي الطيب يوقظ في نفسى الشك . ولعل هذا الشك قد تسرّب إليها من قراءتى أولى رسائله الموجهة إلى الفضل بن أحمد الإسفرائينى ، وهو أول من استوزر لابن سبكتكين ، فاتح السند والهند ، ومبيد الدولة السامانية التى بسطت سلطانها على فارس زمناً حتى استطال الناس مدتها . وتعجبوا من طول بقائها ، وقال فيها محمد بن زيد الداعى : « ما أشبه الدولة السامانية ، فى طول ثباتها وقلة كفاتها ، إلا بالسما التى رفعها الله بلا عمد . »

قال البديع فى رسالته إلى الإسفرائينى : « إني عبد الشيخ واسمى أحمد ، وهمدان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد . » ومن يصل بنسبه إلى مضر ، وهو فارسى لا شك فيه ، لا يبعد أن يطبّق المفصل ليكون له اسم شاعر الدهر أبى الطيب . . .

هذا ما يبدو لى فى اسمه . أما الذى جعلنى أشك فى اسم أبيه أيضاً ، فهو قول الحاكم أبى سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست جامع رسائل البديع .

قال : حين بلغ الرسائل التي تبادلها البديع وأبوه : « ولوالده إليه كتب ورقاع أنشأها هو - أي البديع - ونسبها إلى والده ليقرأها الأفاضل من الكتاب فيستدلّوا بها على فضل والده . »

ومن يفعل هذا ، كما قال معاصره ، لا يخشى التصرف باسمه واسم أبيه ليأتى اسمه كما يتمنى ويرغب . وهب هذا هو اسم أبيه فلا شك عندى فى أنه بدون ال . أعرف جيداً أن الاسم لا يقدم ولا يؤخر ولكنها فكرة عرضت لى فلم أبقها فى صدرى .

كان معلمه الأول الأستاذ أبا الحسين أحمد بن فارس ، وفى الثانية عشرة غادر بلده . ولما بلغ الرى اتصل بالصاحب بن عباد غلاماً ، ولزم دار كتبه ، فطبع على غرار تلك المدرسة وتأثر أساليبها . وهب ذاكرة قوية ، وحافظة نادرة ، فكان قفلة لا يفلت من خاطره ما يعلق به . ولعل هذا هو الذى حمل معاصريه على القول فيه :

« إنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم منها حرفاً . وينظر فى أربع أو خمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره ، نظرة واحدة ثم يملئها عن ظهر قلبه ، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطوره ، ثم هلم جراً إلى الأول ويخرجه كأحسن شىء وأملحه . » إنها مبالغات نسبوا مثلها إلى المتنبي والمعري وأبى تمام ، وهى عندى إلى الحكايات أقرب منها إلى التاريخ الرصين ، فليست الأذهان دفاتر ، ولا آلات تصوير شمسية حتى تحفظ وتلتقط آثار الأدباء كما هى .

أما قولهم : « وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطوره » فهو مبنى على تلك الرسالة التي رواها لنا البديع فى مناظرته أبا بكر الخوارزمى ، ولعل هذه الرسالة هى التي أوحى إلى الحريرى مقامتيه : المغربية والقهقرية .

ثم غادر حضرة الصاحب وقصد جرجان ، حيث خالط علماءها وهم من الإسماعيلية ، فعاش بينهم حيناً مقتبساً من علومهم وفلسفتهم الباطنية . وانصرف

من عندهم إلى نيسابور فكانت له معركة أدبية فاصلة مع شيخ كتاب عصره أبي بكر الخوارزمي ، فهبت ريحه واغتنمها . . . وفي نيسابور أُملي مقاماته المشهورة . ويزعم المؤرخون أنها أربعمائة عدا ، ولكن هذا غير صحيح . لم يقل ذلك أحد غير الهمداني نفسه ، حين قال من رسالة ينتقد فيها قصيدة للخوارزمي :

« ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات ، ثم عرضها على الأسماع والضمائر ، وأهداها إلى الأمصار والبصائر ، فإذا كانت تقبلها ولا ترجيها ، أو تأخذها ولا تمججها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى إملائنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ويتداركه وهنه فيعلم أن من أُملي من مقامات الكدية أربعمائة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف عيوبه ، والسلام . »

وفي هذا المعنى أيضاً كتب رسالة تهديد ، أو إنذار بالحرب ، إلى أبي المظفر في شأن أبيه أبي الحسين البغوي الذي لا يعجبه نثر البديع ، فراح ينذره بأن من أُملي من مقامات الكدية أربعمائة مقامة حقيق ألاّ يهاج لكشف عيوبه .

واستطاب البديع الأسفار بعد تغلبه على أبي بكر ، ولا سيما بعد أن مات هذا ، فراح ينتقل من حضرة إلى حضرة ، فجاء خراسان وسجستان وغزنة وكرمان متكسباً بأدبه من شعر ومثنور : مقامات ورسائل وقصائد ، فحسنت حاله بعد ما كانت حاشيته رقيقة يوم ورد على الخوارزمي أشعث أغبر منخرق السربال .

فاز البديع بأعطيات الملوك والوزراء والأمراء والرؤساء ، وكأنه رأى هراة نقطة الدائرة من تلك الحضرات فألقى فيها عصا الترحال ، وسعد جده فصاهر أحد أشرافها فافتنى الضياع ومن فيها ، حتى كتب إلى والده يقول له ، كما مرّ ، تقع عينك على خمسمائة نيران وألف أكار . »
وحكى أنه مات مسموماً ، وقيل إنه مات بداء السكتة ، ودفن حياً .

ب - فى هراة :

قضى الأستاذ أطيب أيامه فى هراة ، ولأجل هراة الجميلة لم يردّ على أمّه ، بل هجاها ، كما سيمربك . . . ولا بدع أن يطلق همذان من وقع فى شرك هذه البلدة الجميلة التى يصفها ياقوت فى معجم البلدان : « هراة مدينة عظيمة مشهورة من مدن خراسان . لم أر بخراسان عند كوفى بها فى سنة ٦٠٧ مدينة أجلّ ولا أعظم ، ولا أفخر ولا أحسن ، ولا أكثر أهلاً منها . وفيها بساتين كثيرة ، ومياه غزيرة ، وخيرات كثيرة ، محشوة بالعلماء ، ومملوءة بأهل الفضل والثراء . »

وكان الأستاذ هناك صهر البلد ، فقررت عينه بعد تلك السخونة . كانت أيامه فيها حلوة لولا أبو البخترى الذى كدّرها عليه . ومع ذلك قضى فى أخريات العمر حياة لا كلفة فيها . ثم مات بغتة فاستراح من الأوجاع والآلام النفسية والجسدية ، ولكن تلك الفرعة التى لقيها فى القبر - إن صح أنه دفن حياً - قد كفت ووفت .

أما حياته فى هذه المدينة الغراء فقد رسم لها الشيخ ، أولاً ، صورة جدية ثم أتبعها بصورة أخرى هزلية . كتب البديع إلى الوزير الميكالى ابن أبى بريدة يقول :

« ولو رآنى الأستاذ وأنا فى قميص بأذنين ، وقباء ضيق الردين ، وعمامة كقبّة الحجاج ، وخفّ فاسد المزاج ، أعلاه جراب ، وأسفله خراب ، على برزون عبرىّ التقطيع يرقص كالرضيع ، لعلم كيف تجرى الفرسان ، وكيف يمسح الإنسان . »

ومع ذلك ، وإن كان الأستاذ على هذه الحال التى وصفها ، فهو يؤثّر أن يظلّ بين أكتاريه وبقراته ، ويعتذر فى آخر هذه الرسالة عن الشخوص إلى « حضرة » الميكالى حتى يقول فى ختامها :

« والله لقد رأيت يديّ تجتّ أفواه الأمراء والوزراء ، وقد نظرت يمنية ، فلم أر إلا محنة ، وعطفت يسرة ، فلم أر إلا حسرة . »

رحم الله أبا الطيب الذي قال :

وإذا الشيخُ قالَ أفٍ فما مـلّ حياةً ، ولكن الضعف ملأ

الغنى بطرٌ . كان الهمداني يقطع الفلوات إلى الحضرات ماشياً غالباً ، وراكباً حيناً ، مدّعياً بالسلب تارة على الأعراب ، وطوراً على الأتراك . وها هو هنا يعتذر عن الشخصوس إلى « حضرة » الوزير الميكالي . وكأني أتخيله بعد ما كتب الرسالة السابقة ، يطويها ويضعها تحت الوسادة ، ثم يأخذ ورقة أخرى ليدبج رسالة ثانية إلى صديق يصف له بقرة ويسأله أن يفتش عنها ويشتريها له . وكأني أسمع يبربر متأففاً عند ما همّ بكتابة الرسالة : « استزارة البقر خير من زيارة البشر . . . » ثم ينكب ليكتب ما يلي :

« وقد احتيج في الدار إلى بقرة يحلب درّها ، فلتكن صفوفاً تجمع بين قعيين في حلبة ، كما تنظم بين دلوين في شربة ، وليمأ العين وصفها كما يملأ اليد خلفها ، وليرزن مشيها سعة الذرع كما يزين درها سعة الضرع . ولتكن عوان السنّ بين البكر والمسّنّ ، ولتكن طروح الفحل رموح الرحل ، وليصف لونها صفاء لبنها ، وليكن ثمنها كفاء سمنها ، ولتكن رخصة اللحم جمّة الشحم ، كثيرة الطعم سريعة الهضم ، صافية كالجون فاقعة اللون ، واسعة البطن وطيفة الظاهر ، ممتلئة الصهوة فسيحة اللهوة ، لا تضيق بطنها عن العلف فيؤديها إلى التلف ، ترد الهول ولا تخافه ، وتشرب الرنق ولا تعافه ، واجهد أن تكون كبيرة الخلق لتكون في العين أهيّب ، ضيقة الخلق ليكون صوتها في الأذن أطيّب ، واحذر أن تكون نطوحاً أو سلوحاً ، وإياك أن تبعثها ملوحاً أو رشوحاً . ولتكن مطاوعة عند الحلب لا تمنع نفسها ولا تكثر لحسها ، وداهية في الرعي لأقرب سعي ، حقاء على الحوض كالنعجة لا تأمن من البعجة ، ألوفة للراعي الذي يرعاها ، مجيبة لصوته إذا دعاها ، مهتدية إلى المنزل بغير هاد ، ذاهبة إلى المرعى بغير قياد . ولا أظنك تجدها ، اللّهمّ ، إلا أن يمسخ القاضي بقرة ، وهو على رأى التناسخ جائز . . . »

فاجهد جهدك وابذل ما عندك ، واجعل اهتمامك أمامك وحرصك قدامك

يوفق سعيك ويحسن هديك ، واستعن بالله تعالى فإنه نعم المولى ونعم المعين
والسلام . »

حقاً لو وجدت هذه البقرة البديعية لاستحق صاحبها الوسام الزراعى من
الدرجة الأولى ، وسهرت الدولة على سلامتها أكثر من البشر . . . الحمد لله
الذى جعل من هذا السبّاب مزارعاً فخصّ البقر بالتفاته أدبية كريمة لم يرمقها
بها أحد من قبل ، وقلّما جاد هو بمثلها على إخوانه البشر . . .

٢ - رأى الكتّاب فيه

لا تعجبني تلك الجيوش من النعوت الجارية التي كان يحشدها الثعالبي
حين يترجم لأدباء اليتيمة وشعراؤها . فكأنه كان يفتش عن ألفاظ وتعايير
لينظمها صفوفاً عسكرية تعرض في ميادين الأذهان ، وتؤدّي التحية لكل ذى
فضل . وهاك نموذجاً مما قاله في المترجم له : « هو بديع الزمان . ومعجزة
همدان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطار ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم
يدرك قرينه في طرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته . ولم ير ، ولم يرو أن
أحدّاً بلغ مبلغه من الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره . فإنه كان
صاحب عجائب وبدائع وغرائب . . . »

ألا ترى معنى أن صاحبنا الثعالبي يكيل المدح بالمدح ، وأن مثل هذا الكلام
أقرب إلى الهذر منه إلى الجدل . عفوّاً لقد جاءت السجعة ، فكرهت أن أقول لها
ما قاله جرير لصائدة القلوب^(١) . . .

أما الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن دوست ، جامع رسائل الهمداني
فكان كلامه موزوناً تقبله النفس . قال في مقدمة الرسائل يصف البديع
للذى سأله جمع آثاره : « وكان أبو الفضل طلق البديهة ، سمح القريحة ، شديد
العارضة ، زلال الكلام عذبه ، فصيح اللسان عضبه ، إن دعا الكتابة أجابته

(١) يشير المؤلف إلى قول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

وقت الزيارة فارجمي بسلام

عفواً ، وأعطته قيادها صفواً ، أو القوافي أتنه ملء الصدور على التوافي . ثم كانت له طرق في الفروع هو اقترعها ، وسنن في المعاني هو اخترعها . . . »
 هذا كلام رجل يفصل الثوب على القد فيقف عنده القارئ متأملاً . أما القول : « بديع الزمان ، ومعجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطار » ، فعبارات تحتوى على كل شئ ، وتكاد تكون لا شئ .

٣ - خَلَقَ البديع وخَلَقَهُ

وصفه ابن دوست بقوله : « وكان أبو الفضل وضى الطلعة ، رضى العشرة ، فتان المشاهدة ، سحرار المفاتحة ، غاية في الظرف ، آية في اللطف ، معشوق الشيمة ، مرزوقاً فضل القيمة . » أما صاحب اليتيمة فيقول في هذا : « وكان مع هذا كله مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصع الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الد ، حلو الصداقة ، مرّ العداوة . »

وأما البديع نفسه فيلقى بعض الضوء على شكله وطباعه ، حين يقول معتذراً في إحدى رسائله إلى رئيس استقدمه إليه ، إنه : « همدانى المولد ، جببلى المنبت ، نارى المزاج ، ضعيف البنية ، يابس العظام ، حاد الطبع ، حديث السن . » إلى أن يختم هذه السلسلة بقوله : « ألا يرحم لحمى الضعيف في هذا الهواء الكثيف ؟ والأمراض لا تعبث من عبده بشحم ولحم ، إنما تصل إلى العظم فتنقصه ، وإلى الروح فتستخلصه . »

وفى رسالة أخرى إلى رئيس بلخ وعميدها يصف أسلوب عيشه بعد الثلاثين فيقول : « ورقات تدرس ، وشجرات تغرس ، وشويهاات تحرس ، واللبن الرائب ، والبرّ الخليط ، وعريش كعريش^(١) موسى . »

إنها حياة فلاح لا حياة رجل يملك ألف رقبة بشر وألف رأس بقر . . . كما قال لوالده . ولعلّ الأستاذ هنا ، على عادة ذلك العصر ، يخفى ما يملك

(١) العريش : الكوخ .

إما خوفاً من الطمع فيه ، وإما طمعاً بأعطية من هذا الرئيس العميد . وعلى كل حال أرى أن الخلتين : طالب علم وطالب مال ، قد اجتمعتا فيه ، وصاحباهما لا يشبعان .

كان شيخ همدان في صباه وشبابه أخا سفر جواب أرض . جاء حضرة صاحب ابن اثني عشر ولزمها حتى اشتد ساعده ، ولعله تركها مغاضباً لأنه في إحدى رسائله وقصائده يقف من صاحب موقف النابغة من نعمانه . ثم ظل ينتجع الحضرات حتى بعدما أثرى واستقر في هراة . لقد طاب له المقام فيها ، ولكن « الحيرى » و « ابن البخترى » والحباة كانوا يقضون مضجعه مطالبين بدفع الضرائب ، والشيخ تعود أن يقبض لا أن يدفع . . . ولهذا ترى نيران الشكوى تتصاعد من رسائله سوداء قائمة كدخان الأتون في عدائه الأول . . . ومن شدة إلحاح هؤلاء عليه نراه يختم رسالة لهذا العميد : « وأسأل الله خاتمة خير وعاجل وفاة ، إن بطن الأرض أوسع من ظهرها وأرقق بأهلها . » كما يقول في رسالة أخرى : « والله لولا يد تحت الحجر ، وكبد تحت الخنجر ، وطفلة كفرخ يومين قد حببت إلى العيش ، وسألت عن رأسي الطيش ، لشمخت بأنفي في هذا المقام ، ولكن صبر جميل والله المستعان . »

ولقد وصف هو نفسه وصدق في الوصف حيث قال :

خلقتُ كما ترى صعب الثقافِ	أردّ يد المعاند في الخلافِ
ولى جسدٌ كواحدة المشانِ	له كبد كثالثة الأثافِ
هلمّ إلى نحيف الجسم منى	لتنظر كيف آثار النحافِ

كان العرب يقولون غليظ الكبد . أما صاحبنا فصور تلك الغلاظة أصدق تصوير . إنه سبّاب شتّام ، همّاز غمّاز تخشى بواده ، وحسبك منه ما رواه عن نفسه فقال : « قدمت على صاحب ولى اثنتا عشرة سنة ، فبينما أنا عنده في دار الكتب إذ دخل أبو الحسن الحميرى الشاعر ، وكان شيخاً مبجلاً ، فقالوا له : إن هذا الصبي لشاعر ، يعنوني بذلك . » أما الشيخ فنظم له بيتين

مهذبّين ليختبر ما عنده ، فأجابه البديع جواباً بذيئاً لا يصدر إلا عن الرعاع . ومن يطلع على نثره وشعره الصاحبين يرى أن شيخنا ، إذا استولى على أمد الغضب ، يستعمل الخاء والراء وكأنه ينثر المسك والند والعنبر . . . غضوب حتى الثورة المجنونة . وكما أن القرن والتنّور لا يخرجان الخبز رافخاً إلا إذا حميا ، كذلك كان بديع الزمان .

قال الحجّاج في جرير : « إنه لجرو هراش » ولعل هذه تصدق على شيخ همدان . فهو أناني لا يرى فوق نفسه من مزيد ، والويل لمن يفضل الخوارزمي عليه ، فما عنده له غير النار والكبريت . وحسبك أن تقرّأ قوله في الرسائل والمقامات : « من لقينا بأنف طويل قابلناه بخطوم فيل » لتدرك مبلغ شراسته ، وهذا شأن كل من يضخم أمره بعد عسر ، ويستغنى بعد قلّة . إن هذه الخصال الطاغية ، والاعتداد بالنفس الذي يجرّ إلى الخطّ من قدر الآخرين ، كانت تقلقل دائماً مركز الشيخ ، فينتقل من حضرة إلى حضرة تاركاً في كل واد أثراً من ثعلبية . . . قال في رسالته لأبي نصر المرزيان يوضح له لماذا خرج من جرجان ووقع في خراسان : « أما السبب فهو أن أناساً غيروا السلطان ولا أعلم كيف احتالوا ، وما الذي قالوا . . . وأشار على إخواني بمفارقة مكاني ، وبقيت لا أعلم أيمنة أضرب أم شامة ، ونجداً أقصد أم تهامة . ونظرت فإذا أنا بين جودين : إما أن أجود ببأسى وإما أن أجود برأسى ، وبين ركوبين : إما المفازة . وإما الجنازة . وبين طريقين : إما الغربية ، وإما التربة . وبين راحلتين : إما ظهور الجمال ، أو أعناق الرجال . » لم يكن الدهاء ينقص شيخنا الهمداني ، فهو واسع الحيلة ، طبّ كعنبرة بأخذ الأمراء واله زراء . يصيب مقاتلهم — ولو مؤقتاً — يصمّهم بسجعه ، وينصب لهم شرك الإطناب ، وهم أبله من الحمام فيسقطون فيها .

أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

وهكذا لم يبقَ ملك منهم إلا قرّص أبو الفضل عجّين «حضرتة» وجدح منه سويقه . . . ولا أستبعد أن يكون مات مسموماً ، لأنه لم يسلم من لسانه أحد . فالأنانية هي القطب الذي دارت عليه رحي حياته ، أقلقه حب الظهور

وأزعجه ، فلا يكاد يسمع أن أحداً قدّم عليه كاتباً حتى يهب لمقاضاته كأن له عنده ديناً ، فتراه في كل مقام يمجّن ويمزح ويتهمك ، بل يكشف العورات ليرينا أنه قادر على القول في كل غرض ، فهو من هذه الناحية أسلط لسان وأقذع هجاء ، بل هو أحسد من مشي عليها . وحسبك منه أنه أراد أن يضع نفسه فوق الجاحظ كما سترى ، فهو لو يستطيع أن يحو معالم العبقرية من الدنيا حتى لا يبقى إلا هو لفعل . وقد أحسن ابن شهيد حين سمى في « التوابع والزوابع » . شيطان البديع « زبدة الخقب » . فشبخنا ، غفر الله ذنوبه ، كان كبطل مقاماته يدور مع الزمان كيفما دار ، فكل من يتغلب وجبت عليه مدحته ، يهمه أن يفوز ولو بشيء من الأسلاب ، ولتكون فيما بعد كلمته مسموعة عند أولى الأمر ، فيوصيهم بهذا ، ويسألهم قضاء حاجة ذاك ، لينعم بجاه ونفوذ بين الجماعة الذين حلّ عندهم .

كان يتشيع ويتسنن مطابقاً مقتضى الحال ، ولا لوم عليه ولا حرج ، ولعل الأبيات الآتية من شعره تصور لنا ما انطوى عليه :

ويك هذا الزمان زورُ فلا يغرنك الغرورُ
زوقُ ، ومخرقُ ، وكُلُ ، وأطرقُ واسرقُ ، وطسبِقُ ، لمن تزورُ
لا تلتزم حالةً ولكن درُ بالليالي كما تدورُ

ولا بدع أن أتى هذا ممن لا يظنّ بالناس إلا شرّاً ، فيقول لنا في ديوانه :

كذلك الناسُ خدّاعُ إلى جانب خدّاعِ
يعيثونَ مع الذئبِ ويمكنَ مع السراعى

وكان الشيخ ، غفر الله له ، قد علم أنه فظ غليظ القلب والكبد ، وكان يتوقع من الأيام أن تكسر شرّته وتعدّل أخلاقه ، ولكنه يئس أخيراً من كل خير طلبه عند الليالي ، فصاح هذه الصيحة المؤلمة :

خليلىّ واهاً لليالى وصرفها لقد ثقفت إلا كعوب خلائقي

٤ - شخصيته

يقررّ البديع قضية يسميها الخراسانية الهمدانية، وكأنه مسلم بها، في رسالة إلى الوزير أبي نصر بن أبي بريدة، وهي منشورة بكاملها في مختارات الرسائل ومنها يقول: «وإن فعلت فلائني خراساني: وأعز موجود في الخراسانية الإنسانية.»

ويوضح هذا أكثر في رسالة أجاب بها أستاذه أحمد بن فارس، وهي منشورة برمتها أيضاً: «واثنتان، أيده الله، قلما تجتمعان: الخراسانية والإنسانية. وأنا وإن لم أكن خراساني الطينة فلائني خراساني المدينة، والمرء من حيث يوجد، لا من حيث يولد، والإنسان من حيث يثبت، لا من حيث ينبت، فإذا انضاف إلى خراسان ولادة همدان، ارتفع القلم، وسقط التكليف. فالجرح جبار، والجاني حمار.»

تري ما خطب خراسان وهمدان؟ يروى الجاحظ في «بخلائه» حكاية ديك مرو، وحكاية خاقان بن صبيح عن مسرجة رجل من أهل خراسان وفيلتها الدقيقة، والعود المربوط فيها، وما دار بين المروى والخراساني من دروس اقتصادية ختمها خاقان بقوله: ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس - أي في البخل - وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان.»

ولست أظن البديع يعني غير هذا بكلمة «الإنسانية». أليس هو في صراع دائم مع العمال والحبابة، ومع أبيه وعمه، فبعد أن أصبح ذاك الثرى صاحب الخمسمائة نيران وألف أكتار لم تجد نفسه على أبيه إلا بمئة دينار، ولا تدفع له إلا بشرط أن ينتقل إلى هراة، والشيخ لا يترك وطنه، فكأن الولد يعجز أباه حتى لا يعطيه شيئاً من ثروته الطائلة.

ويظهر أن الوالد عجز عن أن ينال شيئاً من ولده الذي تكنى بأبي الفضل، ولا فضل، فاستكتب أمه رسالة في هذا الموضوع. ولكن بديع الزمان صخر لا يؤثر به شيء حتى مرداة عمرو بن كلثوم الطاحنة. فما ردّ عليها، بل قال فيها هذه الأبيات الثلاثة:

وعجوز كأنَّها قوسٌ لامٌ فلقوها من نبعة شرّ فلق
 كاتبتي شوقاً إلىَّ وقالتُ : أخذَ اللهُ يا بنيَّ ، بحق
 قلتُ لا أستطيعُ تركَ بلادٍ قد وفي الله في ثراها برزقي

وكتابه لأستاذه ابن فارس أليس شهادةً صارخةً على الخراسانية والإنسانية؟! لماذا يشكو الدهر ابن فارس؟ أليس لأنه في خصاصة وبلغة أن تلميذه أمسي من الأغنياء والأستاذ في حاجة إلى ما يتبلغ به، فما كان من الأستاذ البديع إلا أن أجابه عن الكلام بكلام، واحتجَّ بالخراسانية والهمذانية بكل وقاحة...

هذه واحدة وهي البخل وهو شر الخصال، وأضف إليها واحدة أخرى أشبع منها وهي الكبرياء، فالأستاذ أبو الفضل، غفر الله له، بلغ بالكبرياء حد التعجرف والطغيان، «فالقيام له» في المجالس، عند القدوم والذهاب، أمر لا هواده عنده فيه. بدأ بذلك عند الخوارزمي، وكانت عاقبته تلك المعركة الأدبية التي تجاوز فيها البديع حدود أدب اللسان، فكان أشبه بأبناء الشوارع... عتب الأستاذ على أبي بكر لأنه «دفع في صدر القيام عن التمام» أي لم تنتصب قامة الخوارزمي الانتصاب التام، حين استقبل البديع، فشنَّ هذا عليه الغارة.

وهذا «القيام» يرافقتنا في رسائله. فيها هوذا يدبج رسالة إلى أبي سعيد بن شابور لأنه قام له حين دخل عليه، ثم ترك القيام حين خرج من عنده، فحشد عبارات اللوم والتعنيف، قال: «فأول ما أعتب عليه قعوده في المجلس عمّا بذله في أوله، وثناقله في عجز الأمر عما حرص عليه في صدره، من توفير سلام، وإيفاء قيام... على أني دخلت عليه وأنا أحمد الهمداني، وخرجت من عنده وأنا أحمد الهمداني، فإن كان قيامه قد سرّ، فقعوده ما ضرّ». وبلغني أن كاتبه أبا الفضل بن نصرويه حكم للخوارزمي على بالفضل.

فقلت ولم أملك سوابق عبرتي متى كان حكم الله في كرب النخل

وأما ذلك الوقح الوسخ ولا أعرف اسمه، وأحسب أن كنيته أبو الفضل، أو أبو الطهر! وما كان فهو اسم مفخّم، ومعنى مرخّم. فما أحوجه إلى سونيز عقل، وسعتر فطانة، حتى تحلّ مكالمته. وما كان أحسن حال السادة عند اللقاء حتى

يكون حاله . نعم استنتت الفصل حتى القرعاء . » وفي ختام هذه الرسالة يعين مكاناً للاجتماع عند الشيخ أبي القاسم ليعتذر إليه عما جرى من تقصير بحقه .
وهناك مكتوب آخر يوجهه إلى القاضي أبي نصر بن سهل أمر من هذا لهجة إذ يقول : « ما للقاضي ، أعزه الله ، يلقاني بوجه كأنه الزقوم ، ويراني فلا يقوم ؟ ! أنا أسأله أن يقتدى بغيره لا . . . أأست لقيامه أهلاً ! لعن الله أكثرنا جهلاً ، وأقلنا فضلاً ، وأخسنا أصلاً . تلك القلنسوة ليست بأول قلانس الحكام ، وتلك الشيبة ليست بأول شيبة في الإسلام ، ونحن نخ . . . في خير من تلك القلنسوة ، ونصفع خيراً من تلك القمّحدوة ^(١) . فليحسن العشرة معي من بعد ، ولست من رعيته ، وليجمل الصحبة في ظاهره إن لم يحملها من نيته . أو فليفعل ما شاء فإنها شقشقة هدرت ، والجميل أجمل والسلام . »
ألا ترى معي أن الأستاذ يفرض نفسه على البشرية فرضاً ، وأنه يشبه بشاراً من هذه الناحية كل الشبه ، فهو ينحى باللوم والسب والشم على من لا يرضى غطرسته وكبرياهه ، أو يفضل الخوارزمي عليه .
قد يقال لماذا لم يعنك إلا بخل الأستاذ وكبرياؤه ؟ الجواب أن كبرياء الأستاذ خلقت رسائله النارية ، وبخله وحبه المال أبدع مقاماته الطريفة ، كما ستري .

(١) القمّحدوة : مؤخر القفال .

الفصل الثالث

جوانبُ بديع الزمان

١ - آثار البديع

ليس لبديع الزمان من آثار غير الرسائل والمقامات والديوان ، وهذه كلها لو جمعت في كتاب واحد لما بلغ حجمه حجم ديوان البحترى ، ولكن الأدب ليس كالحطب ليباع بالقناطير ، وهو لا يقاس بالكيلومترات كالصحارى ، فهذه الآثار ، على صغرها ، بوأت الرجل منزلته العليا في الأدب العربي ، فكان بعيد الأثر فيه .

وليس هذا النثر ولا هذه الرسائل من مواليد القرن الرابع . فالسجع قديم الميلاد كبير السن ، والرسائل هي لغة الناس الطبيعية ، وقد استعملوها حين عرفوا الورقة والقلم . كانوا يعتمدون في بدء أمرهم على الوفود ، فيهيئ الزعيم بضع عبارات يعبر فيها عن غرض الجماعة الذين استسفروه ، ثم نابت الرسائل عن وفود القبائل . كانت الرسالة العربية ، في بدء عهدها ، وجيزة قصيرة ، صريحة واضحة ، لا تفخيم فيها ولا مداورة ، كرسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : « أما بعد ، فقد ظهر من مالك ما لم يكن في رزقك ، وما كان لك قبل أن أستعملك ، فأنتى لك هذا ؟ فاكتب إلى من أين لك هذا المال ؟ وعجّل . »

وكما كتب أحد الخلفاء إلى أحد عماله : « أحبيناك فولسيناك ، اختبرناك فعزلناك ، يدك في الكتاب ، رجلك في الركاب ، والسلام . »
وكما كتب غيره إلى عامل له ينذره : « كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما تعتدل وإما تعتزل ، والسلام . »

ولما آلت إمامة رسائل الدواوين إلى الفرس المستعربين طال سَفَرُ الكلام ، وتمطت المقدمات . فطَوَّ ما شَاؤوا ، وأكثرُوا التبجيل والتعظيم . ومشت الرسالة مع الدهور والعصور فصارت آلة الوزارات وسَلَمَها ، واستقل ، إذ ذاك ، أدب الرسائل ، فوضعت له خطط ورسوم اتبَّعها كَتَّاب الدواوين وغيرهم من المترسلين . ولما جاء القرن الرابع عُنَى مشاهيره بتجويدِها . فدبَّجوها وزوَّقوها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ولما كان السلطان لمن ينتزعه انتزاعاً أخذ هؤلاء الكتاب المترسلون يبجلونهم ويعظمونهم طمعاً بما عندهم من نهاب وسبايا ، وخوفاً من سيفهم المسلول ولا يدرى متى يقع ويحصد .

وكان البديع من فرسان هذا الميدان فكتب وحبَّر ، وعرض بضاعته في الأسواق الأدبية فراجت . وهبت ريحه حين ناظر أبا بكر الخوارزمي ، شيخ المترسلين في ذلك الزمن ، فراح ينتقل من حضرة إلى حضرة وفي خُرْجِه رسائله ومقاماته وقصائده . كان له الإبداع والخلق في المقامات ، والتفوق في الرسائل ، والسوق الماشية في الشعر . . .

١ - رسائله :

البديع في رسائله يصح فيه قول الأخطل في الفرات :

وما الفرات إذا جاشت حوالبه في حافتيه وفي أوساطه العشرُ
مسحفرٌ من جبال الروم يستره منها أكافيفٌ ، فيها دونُه ، زورُ

هذا هو بديع الزمان في رسائله . هائج صائل ، يكسر الجرّة خلف المولى ويسبّ أباه وأمه إذا اقتضت الحال ، وينقش بساط من يلي الأحكام بشفتيه ، ويسجد لمن عنده المال . . . كنا نفتش ، حين ندرس شاعراً ، عن رسالة نستدل بها على ما عنده من طباع وأخلاق وشيم ، أما الآن فنحمد الله على أن أمامنا مجموعة رسائل تدلنا على كل ما عند صاحبنا الهمداني .

فهذا الزخرف والنقش والتزوير ، وهذه المبالغة والتواضع لمن يمدح ، أو لمن يطمع منه ، ولو بكلمة ثناء ، دليل صارخ على ميراثه الجنسي ، فهو في سبه وشتمه في هذه الرسائل ، أشبه بالساسانيين ، فأخلاقه أخلاقهم ، وبضاعته

بضاعته . إن الصنعة في رسائله أكثر منها في مقاماته ، فهو هنا يترسم خطي صاحب فلا يدع سبعة تفلت منه ، بل يشمر وراءها ليقنتصها ويوسع لها المحل اللائق بها .

إنه يختلف عن معاصريه في صوره الفارسية التي رسمها قلمه بدقة ، فاستعار من لعبة الشطرنج صوراً بارعة ، وأغرق في التشابيه ، والاستعارات ، والكنايات والمحسنات اللفظية ، والرمز ، والتلميح والإشارات ، فجاء كلامه مزوفاً مزخرفاً ككل شيء في ذلك العصر . ولذلك بلغ به اعتداده بهذا الزخرف والبهرج أن تطاول إلى مقام الجاحظ ، فقال في إحدى مقاماته : وهل للجاحظ غير عريان الكلام ؟

وكان الأدب العاري من سمات بعض معاصريه فجاراهم هو في هذا المضمار ، فما نزه قلمه عن الألفاظ البديثة في رسائله ، ولا عن الحكايات المنحطة في بعض مقاماته . استجلى في آثاره الثلاثة ومدح ، وعزى وعاتب واستعجب ، وسب وأوصى وتوسل ، فجاءت هذه دليلاً صارخاً على أخلاقه وطباعه ، أما اللون الصارخ في الرسائل الهمدانية فهو الشكوى والسب والتذمر .

أما صناعة البديع فهي واحدة في شعره ونثره ، ولكنه في الرسائل والشعر متعمّل ومتصنع بينما هو في المقامات رجل فن كما سترى .

كان البديع ، كزملائه كتّاب هذا العصر ، يغير على أبي الطيب وغيره من قدماء ومحدثين فيحل منظومهم كما حل الخوارزمي بيت المتنبي فقال : « فم المريض يستثقل وقع الغذاء ويستمرّ طعم الماء ^(١) » ، وكذلك فعل البديع فشنّ غارات شعواء عليه وعلى غيره ، ففصل ذلك الشعر على هنداز مشوره ، فقال في رسالة إلى سهل بن محمد بن سليمان : « لو تعمّد في الردى ، لصرت إليه مشرق الوجه راضياً ، وألوفاً لو رددت إلى الصبا ، لفارقت شبي موجه القلب باكياً ^(٢) »

(١) بيت المتنبي :

ومن يك ذا فم مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

(٢) بيت المتنبي :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شبي موجه القلب باكياً

وكما كتب إلى القاسم الكرجي : « وقد حضرت داره وقبلت جداره ، وما بي حب الحيطان لكن شغفا بالقطآن ، ولا عشق الجدران ولكن شوقاً إلى السكان (١) » .

وأما الجناس فكان عند هؤلاء غاية غايات الإبداع ، فاقراً رسالته التي كتبها إلى سعيد الإسماعيلي يشكو العرب مدعيّاً أنهم قطعوا عليه الطريق ، فراح فيها يذم الدهر الذي « ما ترك فضة إلا فضّها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا علقاً إلا علّقه ، ولا عقاراً إلا عقّره ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مالا إلا مال إليه ، ولا حالاً إلا حال عليه ، ولا سيداً إلا استبد به ، ولا بزة إلا بزّها ، ولا خلعة إلا خلّعها . »

ولا تنس أن الشيخ كان يحلى كلامه بما يدور من الكلام الذي صقلته ألسنة العوام ، كما في رسالته إلى الشيخ أبي جعفر الميكالي يستميحه : « أو لم تكن خمر فخلّ ، وبذل الموجود غاية الجود ، وماشٍ خير من لا شٍ (٢) ، وحمار هو خير من فرس ليس ، وزيت خير من ليت ، وعصفور في الكف خير من كركي في الجو . »

وأحياناً كان يترسم خطي الصاحب وابن العميد في استعمال حروف الجر ، فيكتب إلى أخيه : « وجدتنى بك آنس ، وعليك أقدر ، ولك أملك ، وفيك أنطق ، ومعك أجراً وأجرى . »

وهو مع تلك الحرية في استخدام الألفاظ يجيب الوزير أبا العباس الإسفرائيني خاتماً الرسالة بقوله : « ونحلة أخرى ، وهي أنى مفتون بكلامي ، معجب بصوب أقالمي وذوب أفكارى ، لا أزفه إلا لمن يعتقد فيه اعتقادى ، ويميل إليه كفؤادى ، وينظر إليه بعين رأسى . »

ومن طبيعة الهمداني أن يغالى مادحاً وهاجياً وشاكراً ، فلاقتصاد في الكلام ليس من طبعه ، فيقول مثلاً للشيخ أبي العباس : « وإن أرضيتني في ذلك

(١) أخذ هذا من ذاك الشاعر الذي قال :

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

(٢) استعمالها الجاحظ بمعنى لا شيء .

الحديث ، من صاحب المواريث ، فيدُّ غرّاء ، لا تسعها الأرض والسماء . «
أما المناداة بالويل والثبور فتراها في رسائل الشكوى من القضاة والحباة
حين يقرّبون صوب كيمسه فتقوم إذ ذاك القيامة . وإذا أرضاه الحاكم بقضاء
حاجة أو بتعظيم بالقيام — وهذا يهّمه كثيراً — هاجمه بطوفان من المديح كأن
يقول : « فقبلت من يمناه مفتاح الأرزاق ، وفتاح الآفاق . وصادفت من
الشيخ ملكاً يشاهد عياناً ، وجبلاً قد سمى إنساناً ، وبحراً أمسك عناناً . »

ثم يستطرد إلى الخورازمي فيقول مشيراً إلى تغلبه عليه بتلك المناظرة : « ومتى
استزاد زدنا ، وإن عادت العقرب عدّنا . وما كنت أظنه يرتقى بنفسه إلى طلب
مساماتي بعد ما سقيته كأس الحنظل ، وأطعمته الخ . . . بالخرذل . فإن كان
الشقاء قد استغواه والحينُ قد استعواه ، فالنفس منتظرة ، والعين ناظرة ، والنعل
حاضرة . »

ثم يستمطر في الرسالة وأبل شتائم لا يحسن سردها سواه ، وما رأيته تنقاد إلّا
له . ولا تنس أن للأستاذ في رسائله مراجعات ، فما كتبه إلى الإسفرائيني في
فتح بهاضية رأيناه يكرره لأستاذه ابن فارس . وفي الرسائل أيضاً تكرارات
لبعض ما جاء في المقامات . وكان كثير المعاتبة في رسائله المرة ، وهو في
هذا ابن عم ابن الرومي ، يضيق صدره بمن يحتجبون عنه . ولسيدنا الشيخ
رسالة أشبه برسائل المهاجرين إلى أهلهم عندنا ، مشحونة « سلامات » إلى
هذا وهاتيك وتلك ، ويقول فيها عن عودته إلى همدان ما تعود هؤلاء أن يقولوه
معتذرين عن الرجوع إلى الأوطان . . .

وبعد ، فرسائل البديع لا تملّ ، وإن كانت تدور على لولب واحد ،
وهو الشكوى والتذمر في الغالب . وقد بدا لي أنه لا يوفق في إخوانياته توفيقه
في هجائياته ، فمدحه فارسي جامد ، وتشوقه أقل من هامد ، ولذلك لا تراه
يحيد إلّا إذا هجا أو ذم ، وما أظن أحداً ، شاعراً كان أم ناثراً ، بلغ من
هجو « القاضي » ما بلغه البديع من ذم أبي بكر الحيري ، فهذه الرسالة
آية من آيات الشعر الرفيع في الهجاء .

إن نفس البديع المشتعلة تشغلك بها عن الصنعة في رسائله وأكثر مقاماته ،

فهو يندمج فيما يكتب من موضوعات فتخرج كأنها جزء منه ، فنقرأها ولا نشعر أننا نقرأ سجعاً نكرهه كرهاً يعادل محبتهم له في ذلك الزمان .

ب — مقاماته :

إن خطة المقامات هي من عمل البديع ، فلا لابن فارس ولا لابن دريد يد في صنعها . فالهمداني هو الذي ألبسها هذا الطراز الموشى ، وعلى طريقه هذه التي شقها سارت عجلة الأدب ألف عام . فعبثاً نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع . أما المادة فسنرى أن صاحبنا قد قشها^(١) من هنا وهناك ، وكأني به كان يحاول فيما سرده من قصص ، أن يكون له في كل غرض قول يحاول أن يبرز به المتقدمين وإنما بأسلوب آخر . يدلنا على هذا ما قاله في « المقامة الجاحظية » بلسان بطله أبي الفتح — أي الهمداني — يقول : « إن الجاحظ منقاد لعيان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات » .

لقد كفانا الشيخ الإمام محمد عبده ، منذ نصف قرن وأكثر ، مؤونة الرد على البديع حيث قال في ما علقه من حواش على هذه المقامة : « وهذه الأوصاف التي يعدّها كأنها من مناقص كلام الجاحظ ، هي أعلى مزايا الكلام عند أهله ، وهي التي ترفع مقامه على غيره . وهذا المذهب الذي سلكه الجاحظ هو مذهب رجال البلاغة الأولين ، وبجال فرسانها السابقين . أما المصنوعات ، فهي من أحداث الموضوعات ، لا ينظر إليها إلا صبية هذه الصناعة^(٢) . »

فكأنني : بالبديع ، بعدما فرغ من أبي بكر ، قد أراد التناول إلى سدة الجاحظ العليا فقشر له الإمام العصا ، ومن قرع الباب سمع الجواب . لا تفتش عن أخذ عنه البديع مقاماته فهو مبدعها ، ولا عبرة بالحكايات

(١) قشها : جمعها .

(٢) « مقامات الهمداني » . طبعة بيروت ص ٨١ الحاشية

والنوادر فهذه كانت ولا تزال ، وقد نجد اليوم رجالاً كأنهم بطل بديع الزمان يحتالون وينصبون ، وينتقلون من مكان إلى مكان ، وفي كل مكان تراههم غيرهم ، ولكن إذا فتشنا مقاماته الإحدى والخمسين رأينا في الكثير منها أشياء أخذها البديع من عند غيره ، وجلاها وأبرزها بأسلوبه المصنوع فصارت كأنها له .

فلنبداً بالجاحظ . رحم الله ابن العميد الذى قال فيه : « كل الذين جاؤوا بعده عيال عليه . » فالمقامة العلمية التى يصف فيها البديع العلم هى معارضة لوصف الجاحظ للكتاب ، ولكن أين البديع المليح من ذلك الوجه القبيح !! فقد قصر فيها عن أبي عثمان تقصيراً فاضحاً .

ومن قرأ بخلاء الجاحظ ووقف على حديث خالد بن يزيد عرف أن شيخنا الجاحظ هو أول من حدثنا عن القصص والتكديّة ، والمكدين ، وأن البديع ، غفر الله له ، أخذ هذا الحديث أيضاً وفصله مقامتين : الوصيّة ، والرصافيّة . وما أظن قصيدة أبي دلف الخزر جى المشهورة فى الساسانيين إلا من موحيات الجاحظ . وفى المقامة السجستانيّة سماء من حديث خالد أيضاً ، وهناك ومضات آخر نلمحها هنا وهناك .

وإذا انتقلنا إلى المقامات الأخرى رأينا الحمدانى يغير فى التى سماها المقامة الحميرية على أبي نواس وغيره . فبديع الزمان فى وصف الحمرة ومجالس اللهو ، ومهافت الشباب على الملهات ووصف الغلمان يريد أن يكون له فى النثر ما كان لأبي نواس وغيره فى الشعر . ولا عجب فنثر هؤلاء هو شعر طليق ، كالذى نسميه اليوم بالشعر المنشور . ولم يقف البديع عند هذا الحد بل جمع فى المقامة الحمدانية جميع أوصاف الخيل ، المتفرقة فى منظوم العرب ومنثورهم . ثم شاء أن يضرب فى النقد بسهم فراح يبارى الراوة فيه ، وذلك فى مقاماته : الشعرية والعراقية والقريضية فبدأ فى اثنتين منهما رمزاً ساخراً متهمكاً .

أما التشاتم فى المقامة الدينارية ، فله شبيه فى حكاية أبي القاسم البغدادى وفى رسالة للخوارزمى . وإذا نظرنا نظرة عامة إلى هذه المقامات رأيناها معرضاً لصور الحياة الاجتماعية فى عصر البديع : عصر تحصيل المال من طريقه

الحرام والحلال . فبديع الزمان يعالج فيها الأزمات النفسية والعقد الوجدانية الفاشية في عصره ، ويرسم لنا صوراً اجتماعية أوحى بها إليه زمنه ومحيطه . رأينا بصور لنا الغنى الطازج الحديث النعمة ، كما يصور لنا البطولة المقرونة بالدهاء ، ثم لا ينسى المدح الذى يستخدم له بطله أبا الفتح ، فيفتح الله عليه أبواب الرزق ، ويغرقه طوفان « خلف بن أحمد » . . . فالمقامات : الناجمية ، والنيسابورية ، والخلقيّة ، والملوكية ، والتميمية ، والسارية ، كل هذه جميعها فى مدح « خلف » الذى خلف على الهمدانى وأغناه ، ولا لوم ولا تريب على البديع إن رأينا يخصّ هذا الرجل الكريم بأكثر من عشر مقاماته . وبعض رسائله وقصائده ديوانه ، فما شكر السوق إلا من ربح .

إن فى حكايات البديع احتيالا ودهاء . فتارة يضحك ضحكة بلهاء وتارة صفراء ، كما يحدث لكل قارئ بعد مطالعة المقامة الأصفهانية ، إنك لتشمئز من عمل أبى الفتح بالمصلين حين تركهم فى سجدتهم الطويلة ، فتعجب من نفس ميتة يحملها جسد نتن لا يحترم أقدم أقداس البشرية إذا كان يفوز بالدون من حطام الدنيا .

وتمرّ بمقامات البديع فتعجب بالمقامة المضيرية إذ تراها قصة عصرية قد تنوء عن مضارعتها اليوم قصة فى تحليل الشخصيات ودرس النفسيات . وهناك فكاهة طريفة فى المقامة الحلوانية . والمقامة الأسدية والبشرية تعدّان من الأفايص ذوات العقد ، وإن كان إلى جانب هذه قصص كالمقامة الأذربيجانية التى تبدو كأنها كتبت بلا استعداد . . . فلا هى قصة ولا هى كلام طريف . وفى الجرجانية والبصرية يصور لنا الهمدانى من نسيم اليوم « شحاذين بشرف » .

ويوفق الأستاذ إلى صنع إطار لقصته بأوجز كلام كما ترى حين يصور لك بطل المقامة المكفوفية . أما فى المقامات المدحية « الخلقية » فلا يوفق الأستاذ لا فى القصص ولا فى الطرافة ، وقد يجوز لنا أن نقول له كما قال هو لبطله : إنك لشحاذ . وسرى إذا كنت تشاركنا فى هذا رأى حين تطالع بعضها فى مختارات المقامات .

أما الأسلوب فهو هو ، فالبدیع خلاّق عبارات كقولہ: ليلة نابعة ، وليلة في غير زيّھا . . . إلخ ، كما أنه مغوار على غيره كما قلنا في غير هذا المقام . وقد رأيت تكرير عبارات وأفكار في المقامات والرسائل ولست أدري أيهما أسبق ، ففي المقامة النيسابورية ، وهي في مدح خلف ، كلام مأخوذ من رسالته في هجو القاضي .

والرسالة التي تحمل رقم ١٥٦ في طبعة بيروت شرح الأحذب ، تشبه مقامة الوصية وبعضها منقول بالحرف . وفيهما كليهما آراء بخلاء الجاحظ في الكرم .

أما التعابير الخاصة فتجدها في أكثر المقامات . وخصوصاً المقامات: القرديّة والأرمينية والخمرية وغيرها . وهناك مقامات مقصورة عن أخواتها ، أو هي على غرار واحد ، حتى يخیل إلى أنه عملها ليتم بها عدداً نوى أن يبلغه ، فإذا قرأت النهدية والحجاجة رأيتهما توأمتين . . .

بقي علينا أن نقول كلمة أخيرة وهي جواب عن هذا السؤال الذي كثيراً ما يرد : هل المقامة قصة ؟ نعم يا سيدي ، إنها قصة . والفرق بينها وبين قصص اليوم كالفرق بين هندامك أنت وهندام جدك ، رحمه الله ، ورحمني معه . ولكن ليست كل مقامات البديع قصصاً فقسم منها لاشيء ؛ والقسم الآخر شيء عظيم ، وحسب الرجل ما خلق . إنه لفنان بديع .

ج - ديوانه :

البديع في مقاماته ورسائله أشعر منه في ديوانه^(١) . وإن كان قد خلق في المقامة البشرية بطلاً أسطورياً جعله شاعراً تاريخياً حقيقياً . لقد تفوق البديع في هذه القصيدة ، وما أحسبه لإمتحاناً أبا بكر الخوارزمي حين قال منها :

فخرٌ مجدّالاً بـإدمٍ كأنّي هدمت به بناءً مشمخراً
وقلت له يعزُّ عليّ أنّي قتلتُ مناسبي جلدًا وقهراً

(١) « ديوان البديع » طبعة مصر سنة ١٩٠٣ ، ناشره محمد شكرى المكي .

إن لنثر البديع أثراً بعيداً في شعره . فهو لا يتخلى عن السجع والازدواج في هذا الشعر ، كقوله ، مثلاً ، في مدح صاحب الجيش أبي على :

ما السيفُ محتطماً ، والسيلُ مرتكماً ، والبحرُ ملتطماً ، والليلُ مقتربا
أمضى شياً منك ، أدهى منك صاعقةً أجدى يميناً ، وأدنى منك مطلباً
وكادَ يحكيك صوبُ الغيث منسكباً لو كان طلقَ الحياءَ يطر الزهبا
والدهر لو لم يخنْ ، والشمس لو نطقتْ والليث لو لم يُصدْ ، والبحر لو عذبا

أما الصناعة وقلة الأناقة فكثيرة كهذا البيت :

وليل كذكراه ، كمعناه ، كاسمه ، كدين ابن عباد ، كاديار فائق

أما الجناس العارم والعبارات النثرية ، فتراها أين توجهت في ديوانه الصغير ؛ تأمل هذه الأبيات :

وكنْتُ إذا ما الليلُ ماج ظلامهُ جعلت على تبارِه جَسَرُتي جسرى
بمشرقة كالطود دائمة السرى كأنَّ على الشعري بها أوعلى شعري
وقد عجبتُ شمُّ الهضاب فما درت أبا عيسى نسرى ، أم بأجنحة النسر
فيارب أندى فرعهُ المجدُ فارعهُ ولا تُخلِ ذاك الصدر من ذلك الصدر

هذه بعض أبيات قالها في مدح الوزير الشيخ أبي نصر بن زيد ، ولا شك في أنها نفقت عنده في ذلك الزمان ، أما في سوق الأدب فلا رواج لها اليوم . وفي ديوان الشيخ كثير من المعميات والأحاجي ، وترجمة شعر فارسي . وقد طبخ لنا في هذا الديوان ما نسميه في لبنان « مخلوطة » فنظم قصيدة غزلية ممزوجة بالألفاظ الفارسية ، وقد نشرناها في المختارات الشعرية للتفككة . وله أيضاً أراجيز وقصائد مصطنعات كلها مبالغات واستعارات وتشبيهات حتى إنى عددت له واحداً وعشرين بيتاً بدأها كلها بكأن ، وهذا يدلنا على الهفافات وعلى التشابيه المرغوب فيها عندهم . ولعل أبرز صفة لهذا العصر هي هذه القوالب البيانية والحسنات اللفظية ، ولو كان في هؤلاء الممدوحين من يشبه الرشيد ، وسيف الدولة ، وابن العميد ، لما أقدم البديع على قول مثل هذا الشعر فيهم .

رحم الله البديع ، وجل من لا عيب فيه وعلا .

٢ - الأديب السياسي

تقدم لنا القول إنه يعيننا أمر الناصر لدين الله أبي القاسم محمود بن سبكتكين أكثر من سواه ، لأنه هو الذى سلب ملك خلف بن أحمد ملك كرمان ، وخلف بن أحمد هذا كان يعطى ويجزل العطاء وهو ممدوح بديع الزمان الذى خصه بمقامات ورسائل وقصائد ستقرأ بعضها فى بابها .

أما سبكتكين فامتدحه بقصائد ، ورسائل وجهها إلى وزيره الإسفرائينى . وهذه إحداها ننشرها هنا للدلالة على مشاركة أديبنا البديع فى سياسة عصره . كتب إليه عندما انهزم السامانيون بباب مرو :

وردت رقعة الشيخ الجليل ، أدام الله بسطته منى ، على صدر انتظرها وقلب استشعرها ، وإنى لا أغلط فى قوم أميرهم صبيّ ، ولا فى دولة عميدها خصيّ ، وسنانها حساقيّ ، ونصيرها شقيّ ، وعدوها قوىّ ، إنى إذا لغوىّ . يا قوم ، بماذا ينصرون ! أبحال عليه اعتمادهم ، أم بجمع هو أمدادهم ، أم يعدل به اعتضادهم ، أم لرأى هو عمادهم ؟ هل هم إلا سطور فى قطور ! إن الله تعالى علم أنهم إن ملكوا لم يُصلحوا ، وأمرهم ألا يفلحوا ، فسمعوا وأطاعوا . طائفة من المداير ، وقوفهم بين النار والنير . إن أقاموا فالسيوف الهندوانية ، وأن أيمنوا فالأتراك والخانية^(١) ، وإن أسروا فجرجان والجرجانية ، وإن استأخروا فالعطش والبرية . هو الموت إن شاء الله آخذاً بالخلاقيم ، محيطاً بالظاعن منهم والمقيم . جرجان يا مداير ، جرجان ، إن بها أكسلة من التين ، وموتة فى الحين ، نظرة إلى الثمار ، والأخرى إلى التابوت والحفّار ، ونجاراً إذا رأى الخراسانى نجس التابوت على قدّه ، وأسلّف الحفّار على لحده ، وعطّاراً يعدّ الحنوط برسمه . وبها للغريب ثلاث فتحات للكيس : أولها لكراء البيوت ، والثانية لاتباع القوت ، والثالثة لثمن التابوت ، أغلى الله بهم أسواق النجّارين والحفارين والمكّارين . آمين يا رب العالمين . » وله أيضاً رسالة وجهها إلى هذا الوزير

(١) نسبة إلى أيلك خان ، وهم جماعة أعانوا على السامانية فى هذه الهزيمة .

يمتدح فيها ابن سبكتكين ، وفيها وصف طريف لفتح بهاضية ، ثم وصف للهند وتعظيم لهذا السلطان الذى فتحها . وسترى ، حين تقرأها فى مكانها ، أن البديع جاء بالبدع فتكسب بالمقامات والرسائل والقصائد .

٣ - الأديب الاجتماعى

شارك بديع الزمان فى وصف أحوال عصره الاجتماعية ، وهذا ما كتبه من رسالة مع الوفد طلباً للنظر لأهل هراة وفيه وصف البؤس الذى ليس فوقه بؤس . قال :

« ولا أزيد الشيخ علماً بهراة وأهلها ، إنه قد شاهد أحوالهم ، وعرف ما عليهم وما لهم ، ولم يغب عن ثاقب فطنته إلا القليل . ولكنى أخبره بما عرض لها ولهم : فيهم فشت الأمراض الحادة فخبطت عشواء وأفنت رجالاً ، ثم جدّ الغلاء ، وفقد الطعام ، ووقع الموت العام . فن الناس من لم يُطعم أسبوعاً حتى هلك جوعاً ، ومنهم من تبلغ بالميتة إلى يومنا هذا ، وهو ينتظر نحيبه ، ليلحق صحبه . ومنهم من لا يجد القوت على كفه حتى يموت ، والباقون أحياء كأنهم أموات ترعد فرائصهم من هذه البوائق . وإن هول السلطان أعظم وأطم ، وأمر " المطالبات " أكبر وأهم . . . »

وكان هذه الرسالة لم تثمر فكتب رسالة أخرى إلى الشيخ السيد ابن أحمد جاء فيها بعد التوطئة : « وقد علم الشيخ ما منى به أهل هراة من محن الخانية ، ثم ما أرهقهم من الحقوق الديوانية ، ثم ما زيد عليهم من علاة المصادرة الحادثة ، ثم ما كشف الأستار ، وأظهر العوار ، وقبح النوار من غلاء الأسعار ، حقاً لقد أكلت الجيفة وهى خائسة ، وطحن عظام الميتة وهى يابسة ، وعُدِمَ القوت وثمنه موجود ، وتركت العبادات وهجرت النياحات ، وأفردت الجنائز ، وتخطى الموتى وهم بالشوارع مطروحون . ولقد دخلت المسجد الجامع يوم أمس فرأيت تحت كل أسطوانة عليلاً ، وكلمت أحدهم فلم يع إلا قليلاً . . . » إلى أن يقول : « ومن الواجب على السلطان ، أعز الله نصره ، فى مثل

هذا العام ، أن يتعهد الناس بالطعام ، ويتخول الرعاية بالإنعام ، ويبدل فيهم
الרגائب ليؤمن الساكن وليتألف الغائب . والبلاء كل البلاء إن طلب هذا المال
الموظف فتذهب الحاسة الباقية . . . »

هاتان قطعتان من رسالتين تعينان القارئ على مقابلة ذلك البطر بهذا
الجوع . وكذلك يفعل فساد الحكم ، وموت ضمير الرعاة في كل عصر .
إني أصدق كل ما كتبه البديع في وصف بؤس أهل بلده ، فقد رأيت
بأمّ عيني هذه المشاهد بل أعظم منها في ضيعتي ، إبان الحرب الأولى
عام ١٩١٦ .

٤ - طابعه الأدبي

جاء البديع والنثر المسجوع والمزدوج ينيخ على الأذهان بكلكله وجوانه .
كان لواء مدرسة ابن العميد يرفرف على الدواوين ، والصاحب يزجي الصفوف
تحت الدرفس . . . وكان أكبر ما يبغى في همدان أن ينصوى تحت هذا
اللواء ، فأتيح له من حضرة الصاحب ما أراد ، ثم انصرف عنها تامّ الألواح
مكتمل العدة ، فقصده كاتب عصره ، أبا بكر الخوارزمي في نيسابور ، فأبدى
الشكر نواجذه منذ وقعت العين على العين . وأراد البديع المنازلة الأدبية فكانت
وفاز ، وانتهت إليه الزعامة الأدبية حين خلت الدنيا من خصمه .
قد يكون البديع غالى في وصف مناظرته مع أبي بكر ، ولكن الذى لا شك
فيه ، هو أن هذا الشاب خاض المعركة مستعداً وولجها أبو بكر مستخفياً .
ساعد البديع شبابه ، وحدة ذهنه ، وسلطة لسانه ، فكان يستولى دائماً على
المبادرة ، ويرى خصمه بقذائف نواذره ونكاته بلا حذر . فما قولك بشاب
يقول لشيخ جليل كأتى بكر : « إنك كهل وأنت شاعر ، وكنت شاباً وأنت
مقامر ، وكنت صبيهاً وأنت مؤاجر ! ! » ثم يقول له مزدرياً شعره الذى أنشده في
تلك المناظرة : « فكره أبو بكر ، أيده الله ، أن تكون الحرّة أعقل منه ، لأنها
تحدث فتغطى . » ثم قوله له : « والله لو أن قفاك غدا في درج ، في خرج ،
في برج ، لأخذك من النعال ما قدم وما حدث . »

وبعد هذا ماذا؟ فتح الله على البديع، فأملى مقاماته الشهيرة فأحلتها في النثر محل امرئ القيس في الشعر، ومشت الذرية على الطريق التي شقها في مقاماته، فكان الحريري أول من حاول وأفلح، ففتن الناس بهلوانياته ومعجزاته ولغوياته ونحوياته... ثم أخذ الكتاب يطبعون على هذا الغرار البديعي الحريري نحواً من تسعة قرون، سود السجع فيها وجوه الأوراق وغلّ أعناق الأقلام، وما أزيح هذا الكابوس عن صدر الأدب العربي إلا في أخريرات القرن التاسع عشر.

فالبديع كما يقول الحريري في مقدمة مقاماته: «سبّاق غايات وصاحب آيات» وعندي أنه ليس لأستاذه ابن فارس في اصطناع المقامة يد، فشيخنا الهمداني عبقرى من الطراز الأول، ولو أنصف الذين قسموا ميراث الأساليب القديمة لما حرموا البديع هذه الإمامة، بل كان هو رأس هذه الطبقة لا ابن العميد.

قال القدماء: «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد»، وأين ابن العميد من نابغتنا هذا؟! أما تجاوز سلطان الهمداني الأدبي لسان العرب وتغلغل في الفارسية والسريانية والعبرانية، فحاول جميع هؤلاء أن يقلدوه، ويكتبوا مقامات في تلك اللغات كما كتب. إن في إنشاء ابن العميد ترف القصور وأناقها، ولكنه يكاد يكون معدوم الحرارة، في حين ترى النار المتأججة في رسائل البديع، فلم يحمدها كره الدهور والعصور، فمن يقرأ رسالته إلى ذلك الموظف المعزول ولا يحسب أنها كتبت أمس؟! ثم من يطالع رسالته في ذم أبي بكر الخيري ولا يظن أنها كتبت أول من أمس؟!.

أما خدع البديع تاريخ الأدب العربي تسعة قرون في قصيدة وصف بها قتال بشر بن عوانة للأسد حتى قال ابن الأثير الذي يدعى علم كل شيء، في نقد قصيدتي البحتري والمتنبي في قتال الأسد: «ولفطانه أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشر، لأنه قصّر عنه تقصيراً كثيراً». وما بشر بن عوانة إلا البديع الذي خلق هذا البطل الأسطوري فبلغ من القصة والقصص ما يعدّ أكبر أمنيّة يصبو إليها كبار القصصيين العالمين

اليوم . أى أن يخلقوا بطلاً خالداً كأبطال شكسبير ومولير .
فالبحتري كما يفهم من نقد ابن الأثير مقصر عن البديع ، وإن كان
البديع هو الذى انسحب على ذيل البحتري . . .
نعم إن البديع وابن العميد والصاحب والخوازمي شعراء انصرفوا إلى النثر
بل قل الشعر المنتور ، لأنهم لم يقدرُوا على مجازاة المتنبي شاعر العصر بل
شاعر جميع العصور الأدبية العربية ، ومثل هذا حدث ويحدث عند جميع
الأمم ، فأكابر القصصيين هم شعراء قصّروا عن نوايغ الشعراء ، فكانوا في
مشورهم أشعر منهم في منظومهم ، وهذا ما أصاب كتّاب القرن الرابع قبلهم ،
قصروا عن أبي الطيب فراخوا يحلون شعره ويسرقون معانيه وبعض تعابيرهِ الخاصة
كما قال صاحبنا البديع لأحدهم في إحدى رسائله السامّة : « اسكت يا بعض
الأنام . . . » أخذه من قول شاعر العرب الأعظم :

وصرتُ أشكّ فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام

وإذا ابهر بديع الزمان وادعى فهو على حق ، بل هو سيد الموقف وأمير
الكلام في هذه الحقبة من تاريخ الأدب ، ولم يفتهُ الحريري في العبارة التي
لا غبار عليها إلا لأنه نحوى لغوى وشاعر أيضاً ، أما الفنّ في المقامات فبقى
وظلّ وسوف يبقى للبديع .

البديع أديب طريف ، قصصى ملهم يريك بعيدات الشخصوس كما هي .
أما الحريري فعبارته صلبة منحوتة ، وفي مقاماته جفاف أسلوب العلماء والنحاة .
فالعبقريّة الفنية البعيدة عن التحكيك والتعمّل إنما تجدها في رسائل بديع الزمان
ومقاماته . إن حلّو الكلام ومرّة لهذا الرجل ، وإذا كان الجاحظ أحلّ النثر
محل الشعر ، فأهدى « الكتاب » إلى الخلفاء والوزراء ، فهذا هوذا البديع ينهج
نهجه فتحلّ المقامة والرسالة محل القصيدة ويجاز عليهما ويعطى ، وإن كان
بينهما مسافات شاسعة . فالجاحظ يتنفس من كبير ولا يضيق صدره عن ميدان
مهما كان طويل الأمد ، في حين نرى البديع ضيق المنخرين والصدر قصير
النفّس .

ثم أليس سواء لدى الفن ، أربعمائة مقامة أملى الهمداني أم خمسين ؟

فالمقامة المضيرية وبضع أخوات لها تغنى عن ألف ، وهي كافية لتحل صاحبها حيث حل . كان البديع واقعياً أكثر منه خيالياً ، وإن توكأ على عصا الاستعارات والتشابه والكنيات ، وزين كلامه بالمجانسة والتلميح والإشارات . إنه مادی لا يفلسف ولا يفكر بما وراء الطبيعة ، يتشيع للإثراء والوجاهة الأدبية ، كما يتضح من مناظرته لأبي بكر . رأى السيد أبا الحسين « يضرب عن الخوارزمي بسيفين لأمر كان قد مؤه عليه » . فقال البديع : « أيها السيد ، إذا سار غیری فی التشیع برجلین طرت بجناحین ، فإن كنت أبلغت غیر الواجب ، فلا یحملنک علی ترک الواجب . ثم إن لی فی آل الرسول صلی الله علیه وسلم ، قصائد قد نظمت حاشیتی البر والبحر . . . وللآخرة قلبها لا للحاضرة إلخ . »

— والبديع يتكرر في الألفاظ أكثر من ابتكاره في المعاني ، ويعول على الكلام المستعمل لعلمه أنه أشد تأثيراً في النفوس . وقلما ذكر آية أو حديثاً أو كلمة مأثورة بحرفها ، بل يكتفي بالإيماء إليها ثم يمضي ، ولذلك يصعب على القارئ العادي أن يدرك كل ما يعنى . وهو ليس ذلك القابض على خناق اللفظة ، فإذا جاءت على هيئتها كان ، وإلا فهو يضع محلها غيرها ، وإذا لم يجد عرب وأخذ من الشارع ولا بأس في ذلك عنده . ولعل هذا من أثر اللسان الفارسي فيه . فكم من ألفاظ ساسانية نجدها عنده قاعدة مطمئنة لا تشكو فراقاً ولا غربة ، بل كأنها بين قومها وأهلها .

والبديع يدرك أن الجملة الطويلة ضعيفة الوقع ، ولذلك ترى جملة خفيفة وخصوصاً عندما ينبرى للهجاء ، بل قل للسب ، لأن هجاء صاحبنا سب وشتائم .

فهو عندي لم ينفرد في مقاماته أكثر من تفرد في رسائله التي بلغ فيها ما لم يبلغه أكابر الشعراء المهجائين العرب . فهو يمجن ويمزح ، ويتهمك ويكشف العورات ليكون له في كل عرس قرص ، ويرينا أنه ذلك القادر على القول في كل غرض ومطلب . إنه في مجونه وهجائه مرّ موجه ، وهو فيهما أقرب إلى بشار منه إلى أبي نواس الخفيف الظل .

ولكن نفس البديع نفس فنان أصيل يعرف كيف يتبدى وكيف ينتهى ،
وله كلمات مسكتة ونهايات طريفة ، كقوله فى مقامته الرصافية : « وفتش
الغلام البيت فلم يجد سوى البيت . »
وكقوله لبطله وهو فى ختام المقامة الإبليسية : « يا أبا الفتح ، شحذت على
إبليس ! إنك لشحاذ ! »

وكقوله بلسان الحمائم الذى زجر بطل الهمداني : « اسكت يا فضولى . »
إن هذا السخط على كل شيء هو الذى أنطق البديع بما نطق ، ولعل
أخلاقه السرية أشبه بأخلاق بطله أبى الفتح . كان داهية مثله فى فتح أبواب
الرزق ، فالشعراء قبل البديع كانوا يصفون الناقة ليبالغوا فى وصف مشتقات
السفر ، ويكبروا مصائبهم فى عين الممدوح ليكبر الجائزة . أما صاحبنا
الهمداني فكبطل مقاماته يدعى أن داهية نزلت به قبل بلوغه « الحضرة » ؛ تارة
يزعم أن العرب قطعوا عليه الطريق وشلحوه ، « وورد نيسابور براحة أنقى من
الراحة ، وكيس أخلى من جوف حمار ، وزى أوحش من طلعة المعلم » ؛ وطوراً
يتهم بذلك الأتراك كما سترى فى رسائله .

وقد يتساءل القارئ إن كان البديع سيد القلم فلماذا لم يستوزر ؟ !
أما الجواب عن هذا فأظن أن أنايته وعجرفته ، ولسانه الطويل ، وحرصه بل
شحه وتكالبه على المال قد حالت دون بقائه فى القصور . وإنا نحمد الله على
هذا ، فلو استقر البديع ورضى لما خرج من رأسه ما خرج من رسائل هجاء
تعد آيات من آيات سحر الكلام .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار بديع الزمان

١ - الرسائل

١ - من رسائله المدحية

سيوف الحق

كتب إلى الشيخ أبي العباس الفضل بن أحمد الإسفرائيني وزير محمود بن سبكتكين عندما فتح بهاضية في الهند :

إن الله وهو العليّ العظيم العطيّ ما شاء ، منّ على الإنسان بهذا اللسان ، خلق ابن آدم وأودع فكّيه مضغة لحم يصرفها في القرون الماضية ، ويخبر بها عن الأمم الآتية ، يخبر بها عمّا كان بعد ما خلّق ، وعمّا يكون قبل أن يُخلّق ، ينطق بالتواريخ عمّا وقع من خطب ، وجرى من حرب ، وكان من يابس ورطب ، وينطق بالوحي عمّا سيكون بعد ، وصدق عن الله بالوعد ، ولم ينطق التاريخ بما كان ولا الوحي بما يكون بأن الله تعالى خصّ أحداً من عباده ، ليس النبيّن ، بما خصّ به الأمير السيّد يمين الدولة ، وأمين الملة ، ودون الجاحد إن جحد أخبار الدولة العباسية ، والمدّة المروانية ، والسنين الحربية ، والبيعة الهاشمية ، والأيام الأموية ، والإمارة العدوية ، والخلافة التيمية ، وعهد الرسالة ، وزمان الفترة . ولولا الإطالة لعددنا إلى عاد وثمود بطناً بطناً ، وإلى نوح وآدم قرناً قرناً . ثم لم يجد قائل مقالاً أن ملكاً وإن علا أمره ، وعظم قدره ، وكبر سلطانه ،

وهبت ريحه ، طرق الهند فأسر طاغيتها بسطة ملك ثم خلاه ، وعرض الأرض قوة قلب وضبح سجستان وهى المدينة العذراء ، والخطبة العوراء ، والطيّة الغراء ، فأخذ ملكها إخذة عزّ وعنف ، ثم خلاه تخلية فضل ولطف ، ثم لم يلبث أن خاض البحر إلى بهاضية السيل والليل جنودها ، والشوك والشجر سلاحها ، والضّح^(١) والريح طريقها ، والبر والبحر حصارها ، والجنّ والإنس أنصارها ، فقتل رجالها ، وغنم أموالها ، وساق أقيالها^(٢) ، وكسر أصنامها ، وهدم أعلامها ، كل ذلك فى فسحة شتوة قبل أن يتطرقها الصيف ، توسّطها السيف ، وهو الله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء .

ثم حكمت علماء الأئمة ، واتفق قول الأئمة أن سيوف الحق أربعة وسائرهما للنار ، سيف رسول الله فى المشركين ، وسيف أبى بكر فى المرتدين ، وسيف علىّ فى الباغين ، وسيف القصاص فى المشركين ، وسيوف الأمير ، وفقه الله ، فى مواقفه لا تخرج عن هذه الأقسام ، فسيفه بظاهر هراة فىمن عطل الحد وأتهم بأنه ارتدّ ، وسيفه بظاهر غزنة سدّ فى وجه العقوق ، نوعاً من الكفر والفسوق ، وسيفه بظاهر سجستان فى من نبّه الحرب بعد رقودها ، وخلع الطاعة بعد قبولها . وسيفه الآن فى ديار الهند سيف قرنت به الفتوح ، وأثنت عليه الملائكة والروح ، وذلت الأصنام ، وعزّ به الإسلام ، والنبي عليه السلام ، واختصّ بفضله الإمام ، واشترك فى خيره الأنام ، وأرخت بذكره الأيام ، وأحقيت بشرحه الأقلام .

وسنذكر من حديث الهند وبلادها ، وغلظ أكبادها ، وشدة أحقادها ، وقوة اعتقادها ، وصدق جلالها ، وكثرة أجنادها ، نبذاً ليعلم السامع أى غزوة غزاها الأمير السيد . إنها بلاد لو لم تُحيها السحاب بدّرّها ، لأهلكتها الشمس

(١) الشمس .

(٢) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس والمملك من ملوك حمير .

بحرّها ، فهي دولة بين الماء والنار ، ونوبة^(١) بين الشمس والأمطار ، تقدّمها صعاب الجبال وتحجبها رحاب القفار ، ويعصمها ملتف الغياض^(٢) ، وتحفّها طواغى الأنهار ، حتى إذا خرّقت هذه الحجب خلّص إلى عدد الرمل والخصى رجالاً ، وشبه الجبال أفيالاً ، وأنزاع المخاض جلاداً ، ومسناف الجبال طعاناً ، وأركان الجبال ثباتاً ، ثم لا يعرفون غدراً ولا بيتاً ، ولا يخافون موتاً ولا حياة ، ولا يبألون على أى جنبيه وقع الأمر ، وينامون وتحتهم الحجر ، وربما عمد أحدهم لغير ضرورة داعية ، ولا حمية باعثة ، فاتخذ لرأسه من الطين إكليلاً ، ثم قوّر قحفه^(٣) خشاه فتيلاً ، ثم أضرم فى الفتيل ناراً ولم يتأوّه ، والنار تحطمه عضواً فعضواً ، وتأكله جزءاً فجزءاً . فأما محرق نفسه ومغرقها ، وآكل لحمه ، ومنفصل عظمه ، والراعى بها من شاهق ، فأكثر من أن يعدّ ، وأقلهم من يموت حتف أنفه ، فإذا مات هذه الميته أحدهم سُبّ بها أعقابه ، وعظم عندهم عقابه .

بلاد هذه حالها ، وفيلة تلك أهوالها ، وجبال فى السماء قلالها^(٤) ، وفلاة يلمع آلهها ، وغياض ضيق مجالها ، وأنهار كثيرة أوحالها ، وطريق طويل مطالها ، ثم الهند ورجالها ، والهندوانية واستعمالها . زعم الأمير السيد ، أدام الله ظله ، هذه الأهوال بمنكبه محتسباً نفسه ، معتمداً نصر الله وعونه ، فركض إليهم بعون من الله لا يُخذل ، ومدد من التوفيق لا يفتر ، وقلب من الأهوال لا يجبن ، وحثّ على المطلوب لا يقصر ، وسيف على الضريبة لا ينكل ، فسهل الله له الصعب ، وكشف به الخطب ، ورجع ثانياً من عنانه بالأسارى

(١) دولة .

(٢) الغياض : جمع غيضة وهي مجتمع الشجر فى مغيض الماء .

(٣) قور الشيء : قطعه من وسطه خرقاً مستديراً . والتحف : ما انفلق من الجمجمة فانفصل . أو إناء مثل قحف الرأس كأنه نصف قدح .

(٤) القلال : جمع قلة وهي أعلى الجبل .

تنظمهم الأغلال ، والسبايا تنقلهم الجبال ، والفيلة كأنها الجبال ، والأموال
ولا الرمال .

فتح ذخره الله عن الملوك السالفة الخالية ، الكفرة الطاغية ، الجبارة العاتية ،
حتى وسمه بناره ، وجعله بعض آثاره ، والحمد لله معز الدين وأهله ، ومذل
الشرك وحزبه ، وصلى الله على محمد وآله .

الأب والابن

وكتب إلى الشيخ الإمام أبي الطيب سهل مادحاً خلف بن أحمد ومؤرخاً ما وقع له مع
ابنه حين ثار عليه .

ولما وقع بخراسان ما وقع من حرب ، وجرى ما جرى من خطب ، واضطربت
الأمور ، واختلفت السيوف ، والتقت الجموع ، وظفر من ظفر ، وخسر من
خسر ، كتبني الله في الأعلى مقاماً ، ثم ألهمني من الامتداد ، عن تلك البلاد ،
والإقلاع عن تلك البقاع . واعترضتنا في الطريق الأتراك ، وأحسن الله الدفاع
عن خير الأعلام^(١) وهو الرأس ، بما دون الأعراض وهو اللباس ، فلم نجزع
لمرض الحال ، مع سلامة النفوس ، ولم نحزن لذهاب المال ، مع بقاء الرؤوس .
وسرنا حتى وردنا عرصة^(٢) العدل ، وساحة الفضل ، ومرجع الحمد ، ومشعر^(٣)
المجد ، ومطلع الجود ومنزع الأصل ، ومشعر الدين ومفرع الشكر ، ومصرع
الفقر ، «حضرة» الملك العادل أبي أحمد خلف بن أحمد ، فكان ما أضعناه ، كأناً
زرعناه ، فأثبت سبع سنابل . وكان ما فقدناه ، كأناً أقرضناه ، هذا الملك العادل ،

(١) الأعلام : الأشياء النفيسة .

(٢) العرصة : الساحة .

(٣) المشعر : المورد .

وكأنما سُمِّيَ خلفاً ، ليكون عن كل فائت خلفاً ، وعن كل ماضى عوضاً ،
وكأنما جنَّاه ليضيَّق علينا العالم ، ويغض إلينا بنى آدم ، فيجعل حبسنا سجنستان
وقيدنا الإحسان . وكأنما خلق للدنيا تحجيلاً^(١) ، وللملوك تحجيلاً ، وكان هذا
العالم قد أحسن عملاً ، فجُعِلَ هذا الملك ثوابه ، وكانَّ هذا الملك قد أذنب مثلاً
فجُعِلَ هذا العالمُ عقابه . وكأنه جسم والعَرَضُ عفاته^(٢) ، وكأنه ذاته ،
والمكارم صفاته . فهو البحر يمشى على رجلين ، والمجد يتصور في العين ، والعدل
يتقَسَّم ، والجود يتجسَّم ، والنجم يتكلم . فلما التقينا فرشت الأرض بيدي فرشاً ،
ونقشت التراب بقمي نقشاً ، وخطا إلىَّ خطوات كادت الأرض لا تسعها ،
وكادت للملائكة ترفعها ، ثم إنه زيَّف بلقىاى وفود الكلام ، كما زيَّفت بلقىاه
ملوك الأنام ، وأفسدنى على الناس ، من جميع الأجناس ، فما أرضى غيره أحداً ،
ولا أجد مثله أبداً ، وإن طلبت ملكاً في أخلاقه ، مِتُّ ولم ألاقِه ، أو كريماً
في جوده ، عدمت قبل وجوده . فخرس الله سلطانه من ملك وسَّع أرزاقى ،
فضيَّق أخلاقى ، وأغلى ثمنى فما يشترينى أحد ، وعظم أمرى فما يسعنى بلد ، وهذا
وصف إن أطلته طال ، ونشر الأذيال ، واستغرق القرطاس بل الأنفاس ،
واستنفد الأعمار ، بل الأعصار ولم يبلغ المعشار ، وأفنى الأقلام ، بل الكلام ،
ولم يبلغ التمام .

ما ظنُّ الشيخ بملك شهدت له الفراسة رضيعاً ، بأن لا يكون رضيعاً ،
والمحافل فطيماً ، بأن يكون سمحاً كريماً . والشواهد صبيهاً ، بأن ينزل مكاناً
عليها . والشمائى غلاماً ، أن يكون ملكاً هماماً . فلما أيفع^(٣) وارتفع ، طالبتة

(١) التحجيل : بياض فى قوائم الفرس .

(٢) العفاة : جمع عاف وهو الفقير .

(٣) أيفع : بلغ حد الشباب .

الهمة العليا برفض الدنيا ، حتى يؤدّى فرض الله فى الحج ، فقام عن سرير الملك إلى سبيل النسك . فحج البيت ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه ، ومباحه ومحظوره ومتن الحديث وصدره .

وكان استخلف على رعيته بعض خدمه وأوصى بهم كبيراً ، لا يظلمهم فقيراً^(١) فبسط ذلك العامل يده فى المظالم يحتجبها^(٢) ، والمحارم يرتكبها ، فكرّ عليهم كربة القمر ، ورجع إليهم رجعة المطر ، فخاربه وقهره ، ومحا الله أثره . ثم حملت له الأعداء العصي ، وحنّت إليه القسي ، والله من ورائه ، يكلاه^(٣) من أعدائه ، فما مرّ يوم من تلك السنين إلا نقصهم وازداد . فكم ركن هُدم ، وجيش هزم ، وكيد عدم . فلما أقاموا طويلاً ، ولم يغنوا فتيلاً ، لم يكن أكثر من أن جاؤوه أمراء ، فعادوا فقراء ، وليثوا أسراء ، ورجعوا صاغرين ، وانقلبوا خاسرين . وتبعهم كيد النافذ ، ومكره الآخذ ، يقفوا آثارهم ، ويكسع أدبارهم ، واشتملت جريدة ما لقي من الحروب ، مع أبناء الذنوب ، وأولاد الدروب ، على بضعة عشر حرباً أخفها مع بضعة عشر ألف رجل ، وكتب الله له فى جميعها النصر ، عادة فى ملك يحب الدهر ، فلم يشرب الخمر ، ولم يسمع الزمر ، ولم يعرف النقر ، ولم يلعب القمّر^(٤) . تشحن دور الملوك بالمعازف ، وداره بالمصاحف ، وتأنس مجالسهم بالقيان ، ومجلسه بالقرآن ، ويألف أبوابهم حملة الظلم ، وبابه حملة العلم . وتعبت أيديهم بالعود ، ويده بالجوذ ، وتلعب أناملهم بالمزامير ، وأنامله بالدفاتر ، يدّخرون الدراهم ، ويدّخر المكارم ، ويقتنون الجواهر ، ويقتنى المآثر ، ويعدّون نفيس الأعلاق ، ويعدّ نفيس الأخلاق ، وكثيراً ما ينشدنى :

(١) النقيب : الحفرة الصغيرة فى ظهر النواة .

(٢) احتجب الإثم : جمعه .

(٣) يكلاه : يراعه .

(٤) القمر : المراهنة واللعب فى القمار .

فهنَّ إذا جمعتنَّ دراهمٌ وهنَّ إذا فرقتنَّ مكارمُ
 ألمَّ بهذه السدَّة ، في هذه المدة فلان فرجع بثلاثين ألف دينار ، وقد نزلت
 بهذا المقام ، في هذه الأيام ، فاختلت بين الخيل والخول^(١) ، ومجلسي بين
 الحلَى والحلل ، وسيأتيه العم بتفصيل ما أجملت .

ثم إن لهذا الملك عند الله تعالى دعاءً مستجاباً يصعد بلا حجاب ، واعتبر ذلك
 في خطبٍ وقع في هذه السنة فكشفه الله بدعائه ، وردَّ الكيد في نحر أعدائه .
 وكان بعض أولاده — كرمهم الله تعالى — يشرب في السرِّ شرب المصّر ، فبلغه
 الخبر فقصّه ، على من اختصّه ، وذهبت النفرة طويلاً وعرضاً ، وجرَّ الحديث بعضه
 بعضاً ، وأفضى إلى استمالة قلوب العسكر ، لركوب المنكر ، من إظهار العصيان
 والعقوق ، برفع المنجنوق^(٢) وضرب البوق ، وطابقه على ذلك جملة من الجنود
 ليسعوا في الظلم ، فلا يؤخذوا بالجرم ، وينسلوا عن لجام الشرع ، ويأمنوا عليه
 ألم الرّدع ، ودبَّ الشيطان بينهم ودرج ، وأولج هذا الابن وخرج ، وأتبعه الملك
 العادل بأكثر حجابيه وزعماء بابه ، ونفّر من غلمانِه ليردّه إلى مكانه ، فلما بلغوا
 معسكره صاروا معه يداً واحدة ، وقدماً قاصدة ، وأظهروا شعار الدولة والعصيان
 على وليهم وولى نعمهم ، ومالك لحمهم ودمهم ، واتصل الخبر فكادت العقول تطير
 والقلوب تطيش ولم يؤمن من الحاضرين أن يكونوا مع الغائبين ، ومن المقيمين
 أن يكونوا كالذاهبين . فلما جنَّ الليل أُرْدفهم بجماعة من الأعراب ، وقام إلى
 المحراب ، يستنجد الله تعالى على ولده ، ويسأله أن يجعله في يده ، فلما التقت
 الفئتان أوحى الله تعالى إلى الرّعب أن يدهشه وإلى الرمل أن يوحشه ، فقهر ذلك
 الجمع وقسر ، وقصَّ جناحه وكسر ، وأفلت الكل وأسر ، ولجأ من أفلت إلى ابن

(١) الخول : العبيد والإماء .

(٢) لعله المنجنيق : آلة حربية ترمى بها الحجارة .

سمجور وحارب في عسكره ، فلما التقى الجمعان بباب هراة وفي عسكره الحاجب النادب ، وزعيم بابه الذهاب ، أوحى الله تعالى إلى فرسيهما فوقفا ، فأسر كل واحد منهما وحده ، وأسر من كان معهما بعده ، فكُتِلوا في الحديد وردّوا إلى مولاهم ، فلما مثل الحاجب بين يديه قال : كيف رأيت الله يا ظالم نفسه ! ألم أشترك وحيداً ، ألم أربك ولیداً ، ألم أغنك فقيراً . ألم أرفعك حقيراً ، ألم تهرب مستجيراً ، ألم تكن للظالمين نصيراً ، ألم تأتني أسيراً ، ألسنت به جديراً ، ألسنت عليه قديراً . فما أجاب بأفصح من السكوت ، فلما سمع الملك العادل صليل الحديد في رجليه ، بعد وسواس المنطقة عليه ، رثى لشقوته ، فغفا عن قدرته ، وتلك عادته فيمن خصّه بجرم ، ولا يعفو عن مستوجب حدّ ، ولو عزّ جدّاً ، ثم إنه أطلق عن ولده وحبس من كان يسعى في الدولة بفساد .

وذكر الشيخ أبو فلان أن أبا فلان زاد على خواجه توابع ونوافل وضعف عليه مؤناً ولواحق ، وأمرني أن أكتبه ليرفع من الزيادة ما أثبت ، ويحصد من النكايّة ما أثبت ، فقلت : اللهم غفرأ كيف يحتمسني ، وهل يوقرّ فضلي ، من لا يوقرّ أصلي ! وكيف أكتب سلطاناً لا يعلم أن الدرهم يؤخذ من مالى خبيث الأحدوثة قليل المغوثة . إن رأى الشيخ أن يُعفيني من مكاتبتة .

وهلم إلى ملك وجد خراجين لم تزل الملوك من أسلافه يستأدونهما ويسمون الأول أصيلاً ويتأولون في الثاني تأويلاً ، ويسمون أحدهما فرضاً ، والآخر قرضاً ، فعمد إلى الخراج الأول فتحيفه^(١) ، وإلى الآخر فحذفه . فأما أبو فلان فإن استصوب الشيخ أن يعرض عليه الفصل من كتابي عرض ، ولا يستوحش من خشونة الأقوال ، فهي من خشونة الأفعال من جهته ، فإن جاز لنا أن نقول ،

(١) تحيف الشيء : تنقصه وأخذ من جوانبه .

ثم إن استأنف الحسن عرّفني لأحسن الخطاب ، وأعرف ما خبث مما طاب ،
ويتوب الله على من تاب .

استعطف

وكتب إلى أبي بكر الخوارزمي :

أنا تقرب الأستاذ ، أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر ، ومن
الارتياح للقائه ، كما انتفض العصفور بالله القطر ، ومن الامتزاج بولائه ، كما التقت
الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمرآه ، كما اهتز تحت البارج الغصن
الرطب . فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتي العراق
وخراسان . بل ما بين عتبي نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف في بردة
جمّال . وجلدة حمال :

رثُ الشاغل منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب

وهو أيده الله ولي أنعامه بإنفاذ غلامه إلى مستقرّي ، لأفضى إليه بسرّي ،
إن شاء الله تعالى .

ب - من رسائل العتاب والاعتذار

زهد واعتذار

وكتب إلى الأمير أبي أحمد خلف بن أحمد معاتباً ومدلاً :

كتابي ، أطال الله بقاءك ، وقد كنت نذرت ألا أخاطب حضرتك ، ثم
روى لي القاضي حديثاً طرق إلى تقض ما نذرت طريقاً ، وسمعت منشداً ينشد :

لحي الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقي لبوساً ومطعماً

فقلت أنا معنى هذا البيت، لأني قاعد في البيت، آكل طيب الطعام، وألبس
 لين الثياب، ويُفاض عليَّ نزل^(١)، ولا يُفوّض إليَّ شغل، ويملاً لي
 وطب^(٢)، ولا يدفع بي خطب، وهذا والله عيشُ العجائز، والزمنُ العاجز،
 وكنت أيام مُقام الأمير أرى المسافة بين الرتب قريبة، وأجدني أولاً كالثاني
 وثانياً كالأول، وأرى الآن ترتيباً جديداً، وتفاوتاً بعيداً، وكنت أحسبني
 متأخراً إذا شاء تقدّم، ومتواضعاً لو أراد تعظّم، ومسوداً لو زاحم من ساد، لملك
 الوساد. وأراني الآن مُحوجاً إلى التأخر، مُلجأ إلى التصغّر، ولعل جُرمًا
 تصوّر، أو رأيًا تغيّر، أو اعتقاداً أخلف، أو ظنًا اختلف، فإن لم يكن شيء
 مما سردت وأوردت، فالغلط في صدر القصة كان، وفي عجزها بان، وإن كان
 كذا فبالله ما أرضى، ولو صارت السماء أرضاً، ولا أريد، ولو انقطع الوريد^(٣).
 وإني لأستحي من الله أن أرى لي المثل الأدنى وفي القوس منزع أنا، وإن لم
 أكن بالعراق أمير البصرة، وبيخارى زعيم الحضرة، فما زعجني عنه همدان فقر إلى
 جوع وعري، ولا ساقني إلى سجستان طمع في شبع وري، وإنما نحوم حول المراد:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال

لا يكثر الأمير على من خلعه وصلاته^(٤)، فوالله لو علمت أن قصارى أمرى
 سجستان أليها^(٥)، وضياعها أقتنيها، وغلمانها أشتريها، وأموالها أتسع فيها،
 ولا مطعم في زيادة بعد، لآثرت الزهد على الطلب. الرأس، أيد الله الأمير،

(١) ما يعد للضيف.

(٢) زق.

(٣) الوريد: عرق في العنق.

(٤) الصلات: جمع صلة وهي العطية.

(٥) أليها: أكون والياً عليها.

كثير الخبوط والضيف كثير التخليط ، وصبّ هذا الماء خير من شر به ، وبعْد
هذا الضيف أولى من قر به .

وكأنى بالأمير يقول ، إذا قرئت هذه الفصول : الهمداني رأى بهذه الحضرة من
الإنعام ، ما لم يره في المنام ، فكيف من الأنام ، ولعله أنشأ هذا الكتاب سكران ،
فعدل به عادل السكر عن طريق الشكر ، وكأنه نسي مورده ، الذي أشبه مولده ،
وإنما رفع لحنه ، حين أشبع بطنه ، واللثيم إذا جاع ابتغى ، وإذا شبع طغى ،
والهمداني لو ترك بجلدته ، يرقص تحت رعدته ، ما تربع في قعدته ، ولا تجشأ
من معدته . ولكنه حين لبس الحلة ، وركب البعلة ، وملك الخيل والحوّل تَمَى
الدول ، ورأس اللثيم يحتمل الوهن ، ولا يحتمل الدهن ، وظهر الشقي يحمل عدلين
من الفحم ، ولا يحمل رطلين من الشحم ، ولولا الشعر ما نهقت الحمير ، ولو لم
يتسع حاله ، لم يتسع محاله ، وكذا الكلب يزمن حين يسمن ، ولا يتبع حين
يشبع ، وعند الجوع يهيم بالرجوع ، وهذا المقترح^(١) من دعاه ! ولو لم يكن
عقباً ما تدرج .

ذكرت هذه الكلمات ليعلم الأمير أنى لم أنسها ، ومع تصور هذه الجملة أغار
على لحظاته ، وأواخذ الأمير بحركاته وسكناته ، وأرى أنه سعد منى بأكثر مما
سعدت منه . وأنف أن يقال سماه الهمداني حيث سما سواه ، ويقاس على هذا
ما عداه ، اللهم إلا أن أكون ضيفاً كالأضياف يقيم اليوم ويرحل غداً ، فلا
أنافس أحداً . والأمير ، أيده الله ، يأخذ هذا المعنى فيكسره لفظاً لين المأخذ ،
سهل المقطع ، ويرقيه إلى سمعه ويحيب عبده في الحال بما عنده ، والسلام .

الأدب والذهب

وكتب رقعة إلى مستميج عاوده مراراً :

عافاك الله ، مَثَلُ الإنسان ، في الإحسان ، مَثَلُ الأشجار ، في الأثمار ، سبيل من أتى بالحسنة . أن يرفقه إلى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى ، وهما فؤادى ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالوفود ، وأما اليد فتولع بالجود ، ولكن هذا الخلق النفيس ، لا يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يحتمله الغريم ، ولا قرابة بين الأدب والذهب ، قلما جمعت بينهما . والأدب لا يمكن ثَرْدُهُ^(١) في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، ولى مع الأدب نادرة .

جهدت في هذه الأيام بالطبّاخ ، أن يطبخ من جيميّة الشّمّاخ^(٢) ، لو أنّا فلم يفعل ، ، وبالقصاب ، أن يسمع أدب الكتاب ، فلم يقبل ، واحتيج في البيت إلى شيء من الزيت فألشدت شيئاً من شعر الكميت ألفاً ومئتي بيت فلم يُغنِ . ولو وقعت أرجوزة العجّاج ، في توابل السكباج ، ما عدتها عندي ، ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ ! فإن كنت تحسب اختلافك إلىّ ، إفضالا علىّ ، فراحى ، ألا تطرق ساحتى ، وفرجى ، ألا تجى ، والسلام .

ملامة

وله يعاتب بعض أصدقائه على التعيبس وعدم البشاشة :

الوحشة ، أطال الله بقاء الشيخ ، تقتدح في الصدر اقتداح النار في الزّند ، فإن أطفئتْ بارت وتلاشت ، وإن عاشت طارت وطاشت ، والقطرُ إذا تدارك على

(١) ثَرْدُهُ : أعده ثريداً وهو الخبز المفترت الملتوت بالمرق .

(٢) الشّمّاخ والكميت والعجّاج شعراء مشهورون .

الإناء امتلاً وفاض ، والعتّ إذا ترك فرّخ وباض ، ونحن أولو هذه الصنعة لا يطردنا سوط كالجفاء ، ولا يعقلنا شرك كالنداء ، ثم على كل حال ، ننظر من عال ، على الكريم نظر إدلال ، وعلى اللئيم نظر إدلال ، فمن لقينا بأنفٍ طويل ، لقيناه بخرطوم فيل ، ومن لحظنا بنظرٍ شزر ، بعناه بثمرٍ نزر ، وعندى أن الشيخ الرئيس لم يعرّسنى ليقطعنى فتاه ، ولا اشترانى ليبعنى سواه .

ويحك ! سلّمت عليه الغداة فردّ جواباً يرّد مثله على الوكلاء ، بشرط الإيلاء ، واقتصر من البشاشة ، على تحريك الشاشة ، ومن الإقبال ، على تعويج السبال ، وعهدى بذلك الرئيس يخرق إلى بساطه عدّواً ، وسماطه حبّواً ، فهذا الفاضل أجلّ من والده الفقيه ، أيّده الله ، يوصيه بحسن العشرة معى من بعد ، فللّتيه يوم ، وللجبروت قوم ، وما أريد بعد هذا الإعتاب إعتاباً ، ولا عن هذه الرقعة جواباً ، فإني لا أمكّنه بعدها من أن يستهين ، ولا أسلمّ عليه حتى يهين ، والحمد لله رب العالمين .

تثقيف وتقويم

وكتب إلى الشيخ أبى عبد الله الحسين بن يحيى (١) .

كتابى ، أطل الله بقاء الشيخ ، وللشيخ لذة فى السبّ والعتب ، وطبيعة فى العنف والعسف ، فإذا أعوزه من يغضب عليه ، فأنا بين يديه ، وإذا لم يجد من يصونه فأنا زبونه ، والولد عبدٌ ليست له قيمة ، والظفر به غنيمه ، والوالد مولى أحسن أم أساء ، فليفعل ما شاء ، لا يعدمه الله منى جسداً لا يتألّم بالضرب ، وقلباً لا يتظلم من العتب ، هنيئاً (له) ما استحل من عرّضى وأكل من لحمى ، فما يأتى كل إلحاح ، ولا يضيّم إلا بعضه .

(١) يبسط فى هذه آراء فى التعلم والتعليم .

وكأني به وقد استجدّ إخوانا ولا بأس ، فإن كانت للجديد لذة فللقديم حرمة ، والأخوة بُردة لا تضيق عن اثنين ، ولو شاء لعاشرنا في البين . وكان سألني أن أروده منزلاً ماؤه روي ، ومرعاه غدي ، وأكاتبه لينهض إليه راحلته ، فهالك نيسابور ضالته التي نشدتها ، وقد وجدتها ، وخراسان مُنيئته التي طلبتها ، وقد أصبتها ، وهذه الدولة بغيته التي أردتها ، فقد وردتها ، فإن صدقني رائداً ، فليأتني قاصداً ، وإن رضيني مشيراً فليجئني سريعاً ، وهيبات أن يترك أروند وهضابها ، وترمز وشعابها ، وماوسا ورياضها ، فيعتاض عنها كرم العهد ، ولو علم أن رياض الأخوة أنضر ، وشعاب المروءة أطيب ، وأنه لا يعدم من نيسابور مثل تلك المتنزهات ، وخيراً من تلك المتوجّهات ، لحثّ إليها ركابه .

وأما أنا وأخباري بهذه الناحية ، فمتقلب في ثوب العافية ، موفر بهذه الحضرة ، مرموق بعين القبول ، هذه جملة حالي ووراءها تفصيل ، منها عليه دليل .

وأما الأخ أبو سعيد ، جعلني الله فداه ، ورزقني لقاءه ، فقد شكرت برّه ، ولولا إشفاق من ضعف تركيه ، ولطف ترتيبه ، وعلمي أنه لا يحتمل وعشاء السفر لسألت الشيخ إهداءه إلى لا تولى تعليمه وتقويمه ، لكنه رطب العظام ، لطيف الأركان ، لا أخاطر بإنهاضه من ذلك المكان ، حتى يعقد محّه في عظامه ، وأثق بقوة ألواحه . وبلغني أنه ابتداءً مجمل اللغة فأين بلغ منه ؟ والشيخ لا يحمل عليه بعويص اللغة حتى يعلم سهلها ، ولا يأخذ بما أخذني به ، فالعمر لا يتسع للعلوم أجمع فلينفق على أحسنها ، ويكفيه من اللغة علم مستحسنها ، دون مستهجنها ، ومن الإعراب معرفة أصوله ، وما لا غناء به عنه من فروعه ، ثم يأخذ به علوم كتاب الله تعالى حتى يرد على قرة عين لي ولك ، وصلى الله على محمد وآله .

فاقة وخصاصة

وكتب هذه الرسالة اعتذاراً :

كتابي وقد توسّطت الشباب وتطرفت الشيب ، وقبضت من إثر الزمان ،
ونظرت في عقب الأمور ، وطرت مع الملوك ، ووقعت مع الخطوب :
ورافقتها والجنّ تنهى وتأمّرُ ففارقتها والموتُ خزيانُ ينظرُ
وعددت من سنيّ خمساً وعشرين ، وما عددت أشهرها ، حتى حلبت
أشطرها^(١) ، ولا ساءت رسنها^(٢) ، حتى استوفيت ثمنها ، وأنا بما منح الله الأستاذ
كلّ يوم من مزيد منتظم الأمور ، موفور السرور ، والحمد لله حق حمده ، والصلاة
على رسوله محمد عبده .

وقولُ الأستاذ نعمةً لو صادفتُ أرضاً ، وصنيعةً لو أصابت موضعاً ، فكأنني
به يقول : هذا الكافر للنعمة طوانا حين نشرناه ، وجفانا حين برزناه ، وغاب
سنين فلا كتاب شكرٍ كتب ، ولا قصيدة مدحٍ نظم ، ولا يوماً من أيّام ذكر ،
ولا يداً من أيّادي نشر . وإن فعلت فلأني خراساني ، وأعزّ موجود في الخراسانية ،
الإنسانية . ولورآني الأستاذ وأنا في قميصٍ بأذنين ، وقباء^(٣) ضيق الرّذنين^(٤) ،
وعمامة كعبّة الججاج ، وخفّ فاسد المزاج ، أعلاه جراب ، وأسفله خراب على
برذون^(٥) عبدى التقطيع ، يرقص كالرضيع ، لعلم كيف تجري الفرسان وكيف
يمسخ الإنسان .

(١) يقال : حلب أشطر الدهر أى جربه وعرف خيره وشره .

(٢) الرسن : المقود .

(٣) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٤) الرذن : أصل الكم أو طرفه الواسع .

(٥) البرذون : دابة الحمل الثقيلة .

وقد علم الله أننى فارقت تلك الحضرة مفارقة أينا الجنة ، ولكن الحر لا ينجح إلى القيامة ، على الدعامة بالهامة ، إذا وجد وجهاً خصيباً ، ومرعى رطيباً . والله لقد رأيت يدي مجّت أفواه الأمراء والوزراء ، وقد نظرت يمنة ، فلم أر إلا محنة ، وعطفت يسرة ، فلم أر إلا حسرة :

فإن متُّ لم أهلك وفي النفس حاجة وفي العمر إلا قد قضيتُ قضاءها

لاشمة

جواب إلى من كتب إليه يهنئه بمرض خصمه أبي بكر الخوازمي :

الحرّ ، أطال الله بقاءك ، ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ، ووصف أحواله صفتي ، إذا نظر علم أن نَعَم الدهر ما دامت معدومة فهي أمانى ، فإن وجدت فهي عواري ، وإن مَحَنَ الزمان وإن مطلت فستنفد ، وإلّا تَصِيبُ فكَأَن قَدْ ، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها في نفسه ، ولا يعدمها في جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت ، وما أقبح الشماتة ، بمن أَمِنَ الإماتة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان^(١) طعمه الخيار^(٢) ، وظمان شربه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم يُسَرُّ العاقل بسلاح قاتله ؟ ! . وهذا الفاضل ، شفاه الله ، وإن ظاهر بالعداوة قليلا ، فقد باطناه ودّا جميلا ، والحر عند الحميّة لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأجقاد ، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجّع لعلته ، والتحرّز لمرضته ، وقاه الله المكروه ، ووقانى سماع سوء فيه ، بحوله ولطفه .

(١) غرثان : جوعان .

(٢) الخيار : جمع خير وهو الكريم .

ج - من رسائل القدح والذم

قاضي السوء

وكتب إلى القاضي أبي القاسم على بن أحمد يشكو أبا بكر الحيري :

الظالمة ، أطال الله بقاء القاضي ، إذا أتت من مجلس القضاء لم تَرَقْ إلا إلى سيد القضاة ، وما كنت لأقصر سيادته على الحكم ، دون جميع الأنام ، لولا اتصّالهم بسببه ، واتّسامهم بقلبه ، وهم القضاة اتّسموا بسمته ، متطفلين على قسمته . ألهم أديم في الصحة كأديمه ، أو قديم في الشرف كقديمه ، أو حديث في الكرم كطريفه ؟ فهنيئاً لهم الأسماء وله المعاني ، ولا زالت لهم الظواهر وله الجواهر ، ولا غرّو إن سمّوا قضاة فما كل مائع ماء ولا كل سقف سماء ، ولا كل سيرة عدل العمرين ^(١) ، ولا كل قاض قاضي الحرمين ، وبالثارات القضاء ! ما أرخص ما بيع ، وأسرع ما أضيع ، وألبسته الأندال قبل خلو الديار وموت الخيار ، ألا يغارون لحلى الحسناء ، على السوداء ، ومركب أولى السياسة تحت الساسة ، ومنزل الأنبياء من تصدّر الأغنياء ، وحى البزاة من صيد البغاث ، ومربع الذكور من تسلط الإناث ، وبألرجال وأين الرجال ؟

وُلّي القضاء من لا يملك من آلاته غير السبال ، ولا يعرف من أدواته غير الاختزال ، ولا يتوجه من أحكامه إلا في الاستحلال ، ولا يرى التفرقة إلا في العيال ، ولا يحسن من الفقه غير جمع المال ، ولم يتقن من الفرائض إلا قلة الاحتفال وكثرة الافتعال ، ولم يدرس من أبواب الجدل إلا قبح الفعال وزور المقال . ذاك أبو فلان الفلاني أضاعه الله كما أضاع أمانته ، وخان خزانته ، ولا حاطه من قاض في صولة جندي وسبلة كردى ، فما أشبهه في قضاياه ، وتحيرّه بين خطاياّه ،

(١) العمران : أبو بكر وعمر .

إلا بالصبيّ يسلم إلى عديله ، ويلفّ وجهه في منديله ، ويجتمع عليه أتراكه فيحنّ قذاله^(١) . وكل رفعة بصفحة ، ويسأل عن ضاربها ، فإن غلط في صاحبها ، أعيد على وجهه اللفّ ، وعلى قذاله الكفّ ، وكذا من شغل أيام صباه بما شغل ، وفعل أيام الشباب ما فعل ، ثم جلس للقضاء كهلا ، ووسع كل شيء جهلا .

وبعد ، فإن القضاء من القضية ، والحكمة لا تلد غير الحية ، فمن اعتزى إلى أب كأيّيه ، واقتنر بأخ كأخيه ، لم يُلمّ على جهله ، فهو الشيء من أهله ، والفرع في أصله . والعلم ، أطال الله بقاء القاضي ، شيء كما تعرفه بعيد المرام ، لا يصاد بالسهم ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط باللبام ، ولا يورث عن الأعمام ، ولا يكتب للثام . وزرع لا يزكو في كل أرض حتى يصادف من الحرص ثرى طيباً ، ومن التوفيق مطراً صيباً ، ومن الطبع جواً صافياً ، ومن الجهد روحاً دائماً ومن الصبر سقياً نافعاً ، والعلم علق لا يُباع ممن زاد ، وصيد لا يألف الأوغاد ، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح ، وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، ورد الضجر ، وادمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، ثم هو معتاص على من زكا زرعه ، وخلا ذرعه ، وكرم أصله وفرعه ، ووعى بصره وسمعته ، وصفا ذهنه وطبعه ، فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء ، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالغناء ، وأفرغ جدّه على الكيس ، وهزله على الكأس . والعلم ثمر لا يصلح إلا للفرس ، ولا يغرس إلا في النفس ، وصيد لا يقع إلا في البذر ، ثم لا ينشب إلا في الصدر ، وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ ، ثم لا يعقله إلا شرك الحفظ ، وبحر لا يخوضه الملاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبل لا يتسمّم

(١) القذال : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .

إلا بخطا الفكر ، وسماء لا يصعد إلا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد .

أيكفي أن يصبح المرء بين الزقّ والعود ، ويمسى موجبات الحدود ، حتى يتمّ شبابه ، وتشيب أترابه ، ثم يلبس دَنِيَّتَهُ ، ليخلع دينيته ، ويسوى طيلسانه ليحرّف يده ولسانه ، ويقصّر سبّاله ليطيل حباله ، ويبدى شقايقه ليغطّي مخارقه ، ويبيض لحيمته ليسودّ صحيفته ، ويظهر ورعه ، ليخفي طمعه ، ويغشى محرابه ، ليملاً جرابه ، ويكثر دعاءه ، ليحشو وعاءه ، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً ، ويقعد حاكماً ، هذا إذا المجد كآله بقفران . كلاً حتى ينسى الشهوات ، ويجوب الفلوات ويعتضد المحابر ، ويحتضن الدفاتر ، وينتج الخواطر ، ويحالف الأسفار ، ويعتاد القفار ، ويصل الليلة باليوم ، ويعتاض السهر من النوم ، ويحمل على الروح ويحني على العين ، وينفق من العيش ، ويخزن في القلب ، ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق ، ولا من التحقيق إلا إلى التعليق . وحامل هذه الكلف إن أخطأه رائد التوفيق ، فقد ضلّ سواء الطريق ، وهذا الخيري رجلٌ سفلة طلب الرئاسة بغير تحصيل آلاتها ، وأعجله حصول الأمانة عن تمحل أدواتها :

والكلب أحسن حالةً وهو النهاية في الخساسة

ممن تصدّر للرياسة قبل إبان الرياسة

فولى المظالم وهو لا يعلم أسرارها ، وحمل الأمانة وهو لا يعرف مقدارها ، والأمانة عند الفاسق ، خفيفة الحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، ويحملها الجهال ، وقعد مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين كتاب الله يتلى ، وحديث رسوله يروى ، وبين البيّنة والدعوى ، فقبحه الله من حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدلى بهما إلى الحكم ، ولا مزكّي أصدق لديه من

الصُّفْر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحب إليه من غمزات الخصوم ، على
السكيس المختوم ، ولا وكيل أوقع بوقاه من خبيثة الذيل ، وحمال الليل ، ولا كفيل
أعز عليه من المذيل والطبق ، في وقتي الغسق والفلق ، ولا حكومة أبغض
إليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس ، ثم الويل
للفقير إذا ظلم فما يغنيه موقف الحكم ، إلا بالقتل من الظلم ، ولا يجيره مجلس
القضاء ، إلا بالنار من الرمضاء .

وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود ، بل الحيات السود ، لكانت
سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضي وأقاربه .
وما ظن القاضي بقوم يحملون الأمانة على متونهم ، ويأكلون النار في بطونهم ،
حتى تغلظ قصراتهم^(١) من مال اليتامى ، وتسمن أكفالم من مال الأيامي ،
وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور ، وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من
الكسوة والقوت ، وما قولك في رجل يعادى الله في الفلس ، ويبيع الدين بالثمن
البخس ، وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل السميت ، وباطن أصحاب السبت ، فعله
الظلم البحت ، وأكله الحرام الشح^(٢) ، وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف
الأيام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزنة
الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين
الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟!

وما زلت أبغض حال القضاة طبعاً وجبلةً ، حتى أبغضتهم ديناً وملةً ،
وألغتهم دربةً ، حتى لغتهم قربةً ، بما شاهدت من هذا الخيري وقاسيت ،
وعانيت من خبطه وخطبه ما عانيت ، وسأسوق حديثي معه :

(١) رقابهم . (٢) الحرام ومال الظلم

إنه أصلحه الله قد فُتِّش أعطاف نيسابور فما وجد إلا رأسى دبة^(١) وإلا لحيتى مذبة^(٢)، فغنى لى على خمسة آلاف درهم أُرقت فى كسبها ماء العمر، وأخرجتها من أنياب الخطوب الحمر، وخمسة أشهر من عمرى كل يوم منها خير من عمر شريح القاضى فى أمر الباغ^(٣) المعروف بباغ أسد. عقد لى إجاره ثلاث سنين واحتملت دخله أياماً قلائل، ثم لم يكن مثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج فى طلبه، حتى عبر جيحون بسببه، يطلبه فى كل منهلة، وينشده فى كل مرحلة، وهو لا يجده، حتى جاوز خراسان، وانهى إلى طهرستان، وأتى العراق، وطاف الأسواق، فلما لم يجده، وأيس عاد وقد طالت أسفاره، ولم يحصل حماره، حتى إذا حصل فى بلده، بين أهله وولده، أحب الله أن يلطف له لطفاً ليعتبر به، فنظر ذات يوم إلى إصطبله فإذا الحمار بسرجه ولجامه، وثفره^(٤) وحزامه، قائماً على الملعف ينش.

وأنا أيضاً ما زال يرددنى فى هذا الباغى بأمل يرخيه ويشده، وطمع يرسله ويمدده، حتى صار الباغ بأرضه ومائه، وزرعه وبنائه، فى يد الهمذانى. أليس، أطل الله بقاء القاضى، يعامل مثلى بمثلها إلا سخيّ أو سخيّف، أما السخيّ فالذى لا يبالى بما يؤول إليه عقباه، ولا يوجهه الصقع على قفاه، والله المستعان والقاضى الفاضل المستجار، ولعن الله الحيرى ووقتاً قطعت به ذكركه، وقرطاساً دنسته باسمه، والحمد لله.

(١) طريقة.

(٢) ما يطرد به الذبان.

(٣) البستان.

(٤) سير فى مؤخر السرج يوضع تحت ذنب الدابة.

جفوة ونفار

وكتب إليه رجل عزل عن ولاية حسنة يستمد وداده فأجابه بهذه الرسالة التي عارضها الكثيرون :

وَرَدْتَ رَقْعَتَكَ ، أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ ، فَأَعْرَتْهَا طَرْفَ التَّعَزُّزِ ، وَمَدَدْتَ إِلَيْهَا يَدَ التَّقَرُّزِ ، وَجَمَعْتَ عَنْهَا ذِيلَ التَّحَرُّزِ^(١) ، فَلَمْ تَنْدَ عَلَى كَبْدِي ، وَلَمْ تَحْظَ بِنَاضِرِي وَيَدِي ، وَخَطَبْتَ مِنْ مَوْدَتِي مَا لَمْ أَجِدْكَ لَهَا كِفْؤًا ، وَطَلَبْتَ مِنْ عَشْرَتِي مَا لَمْ أَرُكْ لَهَا رِضًا . وَقُلْتُ : هَذَا الَّذِي رَفَعَ عَنَّا أَجْفَانَ طَرْفِهِ ، وَشَالَ بِشَعْرَاتِ أَنْفِهِ ، وَتَاهَ بِحَسَنِ قَدِّهِ ، وَزَهَا بِوَرْدِ خَدِّهِ ، وَلَمْ يَسْقِنَا مِنْ نَوْنِهِ^(٢) ، وَلَمْ نَسِرْ بِضَوْئِهِ ، وَالْآنَ إِذْ نَسَخَ الدَّهْرُ آيَةَ حَسَنِهِ ، وَأَقَامَ مَائِدَةَ غَصْنِهِ ، وَفَنَّا^(٣) غَرْبَ عُجْبِهِ ، وَكَفَّ زَهْوُ زَهْرِهِ ، وَانْتَصَرَ لَنَا مِنْهُ بِشَعْرَاتِ كَسْفَتِ هَالَالِهِ^(٤) ، وَأُكْسِفَتْ بَالَهُ ، وَمَسَخَتْ جَمَالَهُ ، وَغَيَّرَتْ حَالَهُ ، وَكَدَّرَتْ شَرْعَتَهُ^(٥) ، جَاءَ يَسْتَقِي مِنْ جُرْفِنَا جَرْفًا ، وَيَغْرِفُ مِنْ طَيْبِنَا غَرْفًا ، فَهَلَا يَا أَبَا الْفَضْلِ مَهْلًا :

أَرُغِبْتَ فِينَا إِذْ عَلَا كَ الشَّعْرُ فِي خَدِّ قَيْحِلٍ^(٦)
وَخَرَجْتَ عَنْ حَدِّ الظُّبَا وَوَصَرْتَ فِي حَدِّ الْإِبِلِ
الْآنَ تَطْلُبُ عَشْرَتِي عُذَّ لِلْعَدَاوَةِ يَا خَبِجِلْ

وَتَنَاسَيْتَ أَيَّامَكَ إِذْ تَكَلَّمْنَا نَزْرًا ، وَتَلَحَّظْنَا شَرْرًا ، وَتَجَالَسَ مِنْ حَضْرٍ ، وَنَسْتَرِقُ إِلَيْكَ النِّظَرَ ، وَنَهْتَزُ لِكَلَامِكَ ، وَنَهْشُ لِسَلَامِكَ :

(١) أى الاحتراز منها .

(٢) المطر .

(٣) فنأ القدر سكن غليها .

(٤) أى أنه التحى فذهب جماله .

(٥) محل الماء .

(٦) جلد على عظم .

ومن لك بالعين التي كان مدةً إليك بها في سالف الدهر ينظرُ
أيام كنت تمايل ، والأعضاء تترايل ، وتتغابج ، والأجساد تتفالج ، وتتلقت ،
والأكباد تتفتت ، وتخطر وترفل ، والوجدُ يعلو بنا ويسفل ، وتُدبر ، وتقبل ،
فتتمنى وتخبّل ، وتصدّ وتعرض ، فتضنى وتمرض :

وتبسمُ عن أَلَمي كأنَّ منورًا تخلل حرَّ الرمل غصَّ له ندى
فاقصر الآن فإنه سوق كسد ، ومتاع فسد ، ودولة عرضت ، وأيام انقضت :

وعهد نفاق مضى وخطب كسادٍ نزل
وخذ كأن لم يكن وخط كأن لم يرَل

يوم صار أُمس ، وحسرة بقيت في النفس ، وثغر غاض ماؤه فلا يرشف ،
وريق خلع فلا يشف ، وتمايل لا يُعجب ، وتثن لا يطرب ، ومقلة لا تجرح
الخطأها ، وشقة لا تفتن أفاضها ، فحتم تدلّ وإلام ، ولم نحتمل ، وعلام ، وأن
أن تدعن الآن . وقد بلغنى الوقت ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء في
الغسق ، وتشبيه يفتضح عند ذوى البصر ، وإفنائك لتلك الشعرات حفاً وحصاً^(١) ،
وإسباغك لها تنفّاً وقصاً ، وسيكفينا الدهر مؤونة الإنكار عليك بما يرف إليك ،
من بنات الشعر وأمهاته .

فأما ما استأذنت رأيي فيه من الاختلاف إلى مجلسي فما أقلّ نشاطي لك
وأضيق بساطي عنك ، وأشبع قلبي منك ، وأشدّ استغنائى عن حضورك ، فإن
حضرت فأنت كغاش نروض عليه الحلم ، وتعلم به الصبر ، وتكلف فيه الاحتمال
ونغضى منه الجفن على قذى ، ونطوى منه الصدر على أذى ، ونجعله للعيون تأدياً
والقلوب تأنيباً .

(١) حاق الشعر .

مالك يا أبا الفضل ، تعاض من الرغبة عنا رغبة فينا ! ومن ذلك التذلل علينا تذلاً لنا ! ومن ذلك التعالي تبصصاً ، ومن ذلك الغالي ترخصاً ! وما بال الدهر أبدلك من التزايد تنقصاً ، ومن التسحب على الإخوان تقمّصاً . ولئن اعتضت عن ذلك الذهاب رجوعاً ، لقد اعتضت عن هذا النزاع نزوعاً ، فأنأ برحلك وجانبك ، ملقى حبلك على غاربك ، لا أوثر قربك ، ولا أند^(١)ه سربك ، ولو أحببت أن أوجعك لقلت :

ما يفعل الله باليهود ولا بهادٍ ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاهُ ما يفعلُ الشعرُ بالحدود

د - من رسائل السب والشتم

شكوى وسعاية

كتب إلى الشيخ الفاضل ابن أحمد الإسفرائيني وهو أول من استوزر لمحمّد بن سبكتكين فاتح السند والهند .

كتابي والتمرّة ، أدام الله عز الشيخ الجليل ، تخرج من أكامها ، فتكون مرّةً قبل تمامها ، ثم تصير مرّةً كثيراً من أيامها ، ثم تكون فيجّة عفصة^(٢) ، ثم لا يزال الليل والنهار ينضبجانها حتى تصبح رطباً جنيّاً ، وتؤكل حلواً هنيئاً ، وقد تصورني الشيخ الجليل حجرّاً لا يؤثّر في الماء والنار ، ولا ينضجني الليل والنهار ، والشباب نزقة طيش ثم يربعون ، إذا جاء الأربعون ، وينزعون ، وإن كانوا لا يوزعون .

(١) نده : صاح زاجراً .

(٢) مرة تسبب القبض .

ولقد نظرت في المرأة فوجدت الشيب يتلهب وينهب ، والشباب يتأهب ويذهب ، وما أسرج هذا الأشهب إلا لسير ، وأسأل الله خاتمة خير ، وأنا أرجو أن يكون ما نسبني إليه وليّ النعمة ، أدام الله علوه ، من الظلم والعدوان مطاوعة ومزاحاً ، فإن كان اعتقاداً فلائميّ الويل ، وسال بي السيل . فأما الخراج وتوابعه فوالله ما أحوج عاملاً إلى اقتضائه ، إنما الحديث في جزافٍ يطلب ، ومحالٍ يكتب . فأما حقوق الديوان أصلاً وفرعاً فلا يدعى العمال على باقياً إلا غرمت للدرهم ديناراً . أبحنون أنا ! وأما الشركاء فهم يقدونني بالأهات والآباء . وقد سمع الشيخ الجليل كلامهم والذكري تنفع المؤمنين .

ومما أطرف به المجلس العالي ، زاده الله شرفاً ، أنه كان في جيرتنا رجل يكنى أبا الهول ، كنا نسميه أسطوانة المسجد لكثرة صلاته ، وكان له عمّ موسر لا عقب له ، فرزق ولدًا على كبر السن . فحمل أبا الهول فرط غمّه ، أن زوى الله عنه ميراث عمّه . على ترك الصلاة أصلاً ، فكان لا يؤدّي فرضاً ولا نفلاً ، ولا يردّ سلاماً ، ولا يعمل في الخير عملاً ...

وقد وجدت لأبي الهول عدلاً^(١) ، وهو أبو فلان . كان فيما مضى يعتق في كل شهر عبداً ، ويصلي بالليل ورداً ، ويتخذ مصانع وربطاً ، فرجع من الحضرة ، وقد سلخه الله من كل خير ، وضربه في قالب غير ، فهو الآن لا يشهد جامعاً ولا جمعة ، ولا يصلي في الظاهر ركعة ، ولا يعطي فقيراً حبة ، ولا يرزق طفل منه حبة . وقد اتخذ نقباء وأعواناً ، وارتبط رجاله وفرساناً . وقد ملأ الرستاق والبلد أجعلاً^(٢) . وما سجن أحد قبلي على سعاية ، ولولا أمرٌ خصني لرأيت حقاً لله أن أنهض إلى المجلس العالي لتصوير حاله ، وقد طويت هذا الكتاب على ما عاملني

(١) مماثل .

(٢) خرائب .

به ، وإذا كانت هذه حالى ، وأنا أمشى بالنهار على الماء ، وأخرج بالليل إلى السماء ، علم الشيخ الجليل حال العامة . وإذا أنعم بالنظر فى الرقعة التى طويت ككتابى هذا عليها ، وفى جواب القاضى فى آخرها وعلى ظهرها ، علم صدق ما يقوله العبد .
وللشيخ الجليل فى تأهيل العبد للجواب وزجر هذا الطويل عما يتعاطاه رأيه العالى إن شاء الله .

الوجه اللطيف

وكتب إليه أيضاً فى شأن أبى البخترى :

جزى الله الشيخ الجليل ، السيد النبيل ، أفضل ما جازى مولى عن عبده ، وأضعف الله له من عنده ، ومن قال جزاك الله خيراً فقد أولى جميلاً ، وأعطى جزيلًا ، وما قصر من اتخذ الله وكيلاً . وما بى ، أدام الله تمكين الشيخ الجليل ، مالٌ حصل ، أو حقٌ وصل . إني لا أعدم فى كنفه المال ، وأبلغ دولته الآمال . ولكن أبو البخترى حمانى لذيذ النوم ، ومنعنى بياض اليوم . أنى يكون مثلى وأناسحتب^(١) ضرب ، يعبث به صفعان كأنه دربٌ ، وكنت أسمع بطرار^(٢) كأنه النبيل ، ولم أسمع بمختال كأنه الطبل ، ويقولون لص كالحية فى الظلم ، وطارار كالزلم^(٣) ، فأما طرار كالسلم^(٤) ، ولص فى طول المنارة ، وعرض الغرارة ، فلا إلا هذا الحر ، وعنوان الأحق كنيته ، ثم بنيته ، ثم حليته ، ثم مشيته ، والله ما أعرف معنى أبى البخترى ، فهلا أبو حامد ، وأبو خالد ، وإن امرأة تقعد مدّة تعصر بطنها

(١) جرى .

(٢) لص يشق الثوب لسلب ما فيه .

(٣) السهم .

(٤) شجرة كبيرة .

وظهرها ، وتعذُّ يومها وشهرها ، ثم تسميه أبا البختری لرعناء لا تستحق مهرها ،
 وخليفة أن تطمَّ نهرها ، فلا تلد دهرها . ثم الوجه اللحيم ، لا يحمله كريم ، والأنف
 السمين ، لا ينقله الأمين ، والقطف سير الحجير ، والهرولة مشية الخنازير .

مجمع الرذائل

وكتب إلى عمار بن الحسين :

ما أجد لعمَّار مثلاً إلا الغراب ، لا يقع إلا مذموماً على أى جنب وقع ، وإن
 نعب فروعة النذير ، وإن حجل فُشية الأسير ، وإن شحج فصوص الحجير ، وإن
 أكل فدبر البعير ، وإن سرق فبلاغة الفقير . كذلك عمَّار إن حُذِفَتْ عينه
 فالحَيْنُ ^(١) ، وإن حذفت ميمه فالشَيْنُ ، وإن حذفت راءه فالرَيْنُ ، وإن صحف
 خطه فالَمَيْنُ ^(٢) ، وإن لاصقته فالمعاذير الكاذبة ، وإن استقصيته فالوجه العبوس ،
 وإن صدقته فالظفر اللئيم ، وإن كذبتة فالعقاب الإليم ، وإن زرتة فالحجاب
 الثقيل ، وإن لم ترره فالعتاب الطويل .

تعريض

وكتب في نقض قصيدة أبي بكر الخوارزمي :

سألت ، أمتع الله بك عن الخوارزمي وشعره ، وقلت إنى لأجد فيه بيتاً
 لورؤى في المنام لأوجب الغسل حساً ، وبعده بيتاً إذا سرد ينقض الطهارة مساً ،
 ولعمري إن هذين البيتين لو كانا تينتين ما نبتتا في أرض ، أو تمرتين ما جنبتا من

(١) الحين : الهلاك .

(٢) المين : الكذب .

غصن . فكذلك إذا كانا شعرين يبعد أن يصدرا عن صدر ، أو يطبعا من طبع ،
أو يصبأ على قالب قلب ، أو يكونا نفسى نفس ، فقد يسمن الشاعر ثم يغث ،
ويجيد القائل ثم يرث ، ولكن لا كما تراه فى شعر أبى بكر . وما كنت
لأكشف تلك الأسرار ، وأهتك هذه الأستار ، وأظهر منه العار والعار ، لولا
ما بلغنا عنه من اعتراض علينا فى ما أملينا ، وتجهيز قدح علينا فى ما روينا ، من
مقامات الإسكندري ، من قوله إنا لا نحسن سواها ، وإنا نقف عند منتهاها . ولو
أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات . ثم
عرضها على الأسماع والضائر ، وأهداها إلى الأبصار والبصائر ، فإن كانت تقبلها
ولا ترجها ، أو تأخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى إملائنا بالجرح ،
أو يقصر سعيه ويتداركه وهنه ، فيعلم أن من أملى من مقامات الكيدية أربعمئة
مقامة لا مناسبة بين المقامتين لالفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ،
حقيق بكشف عيوبه . والسلام .

ساكن الإصطبل

وكتب إليه أيضاً :

قد بعث إلى الشيخ ، أطال الله بقاءه ، بأصل مال مجونه ، وأصان إن شاء الله
عن فروعه ، فأما القسمة الواقعة لفلان فلو كان حمارى لنفشت على بطنه اللبن ،
ونقلت على ظهره اللبن . أفأؤدى عنه الغرامة ، لا ولا كرامة ، أنا والله لا أربط
فى الإصطبل ، مثل ذلك الطبل ، إني لأنفس بالعدار ، على ذلك الحمار . من ذلك
الثور ، حتى يحتمل منه الجور ! الموت ولا هذا الصوت ، والمنية ، ولا هذه
الدنية ، والسلام .

هـ - من الرسائل الأهلية :

إغراء

كتب إلى أبيه يستقدمه إلى هراة :

كتابي ، أطال الله بقاء سيّدنا ، من بوشنج ، أسوة بيعقوب في ولده ، إذ ظعن إليه من بلده ، وليس العائق سور الأعراف^(١) ، ولا رمل الأحقاف ، ولا جبل قاف^(٢) ، فلم لا ينشط ، والله لا يضيع بذلك المكان درهماً إلا عوّضته ديناراً ، ولا يعدم هناك داراً ، إلا أفدته ديناراً . أخاف والله أن أموت وفي النفس حاجة لم أقضها ، ومُنِيَّةٌ لم أحظّ ببعضها . لا يفعل سيّدنا الشيخ ، والضنُّ بالولد أولى من الضنِّ بالبلد . وقد رسمت لموصل كتابي هذا أن ينقده مئة دينار بشرط أن يخرج ، وأن يرتّب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العمّ فليتنفضلاً ، وليقوموا ويرحلا . ويستصحب الأخ أبا سعيد ، وليأتني بأهله أجمعين ، فما يعجبني لقاء ليس له بقاء ، ولا وصل بعده فراق . فإن لم يكن استصحب القوم فلا يتأخر بنفسه ، فسيرد على خمسمائة نيران ، وألف أكّار ، وأحوالٍ منتظمة وأسباب مستقيمة .

غيري خالك

وكتب إلى ابن أخته :

أنت ولدي ما دمت والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، المحبرة حليفك ، والدفتر أليفك ، فإن قصّرت ولا إخالك ، فغيري خالك ، والسلام .

(١) سور بين الجنة والنار .

(٢) جبل يقال إنه محيط بالأرض .

فضيلة القصد

وكتب أيضاً إلى وارث مال :

وصلت رقعتك يا سيدي ، والمصاب لعمرُ الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ،
ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأعزة رُشدٌ كأنه الغي ، وقد مات الميت
فليحي الحى ، فاشدد على مالك بالخمس ^(١) ، فأنت اليومَ غيرُك بالأمس .
قد كان ذلك الشيخ ، رحمه الله ، وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد موّلك
بما ألف بين سُرَاه ^(٢) وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره . وسيعجم
الشیطان عودك ^(٣) فإن استلانه رماك يقوم يقولون : خير المال ما أتلّف بين الشراب
والشباب ، وأنفق بين الحباب ^(٤) والأحباب ، والعيش بين الأقداح والقِداح ^(٥) ،
ولولا الاستعمال لما أريد المال . فإن أطعتمهم فالיום في الشراب ، وغداً في الخراب ،
واليوم واطرباً للكاس ، وغداً واحرباً من الإفلاس .

يا مولاي ، ذلك الخارج من العود يسميه العاقل فقراً ، والجاهل نقراً ، وذلك
المسموع من الناي هو اليوم في الآذان زمر ، وغداً في الأبواب سمر ^(٦) والعمر مع
هذه الآلات ساعة ، والتقنطار في هذا العمل بضاعة ، وإن لم يجد الشيطان مغمزاً
في عودك من هذا الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينك ، فتجاهد قلبك
وتحاسب بطنك ، وتناقش عينك ، وتمنع نفسك ، وتبوء في دنياك بوزرك ، وتراه

(١) يتصد الأصابع الخمس .

(٢) السرى : السير ليلاً .

(٣) يحجم العود : امتحنه .

(٤) الفتقاقيع التي تطفو عند مزج الحمرة .

(٥) قداح الميسر .

(٦) شدة بالمسمار .

في الآخرة في ميزان غيرك . لا . ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين ، لا منع ولا إسراف . والبخل فقر حاضر وضير عاجل ، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه ، فليكن لله في مالك قسط ، والهروءة قسم ، فصلِّ الرَّحِمَ ما استطعت ، وقدر إذا قطعت . فلأن تكون في جانب التقدير ، خيرٌ لك من أن تكون في جانب التبذير .

٢ - المقامات

١ - من المقامات الأدبية

المقامة القريضية

حدثنا عيسى بن هشام قال : طرحتني النوى مطارحها حتى إذا وطئت جرجان الأقصى ، فاستظهرت على الأيام بضائعٍ أجلتُ فيها يد العمارة ، وأموالٍ وقفها على التجارة ، وحانوتٍ جعلته مثابة^(١) ، ورُققةٍ اتخذتها صحابة ، وجعلت للدار ، حاشيتي النهار ، وللاحانوت ما بينهما ، فجلسنا يوماً نتذاكر القريض وأهله ، وتلقأنا شابٌ قد جلس غير بعيد يُنصت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الكلام بنا مَيلَه ، وجرَّ الجدال فينا ذَيلَه ، قال : قد أصبتم عُدَيْقَه ، ووافيتم جُدَيْلَه^(٢) ، ولو شئت للفظت وأفضت ، ولو قلت لأصدرت وأوردت ، ولجلوت الحق في معرض بيان يسمع الصمّ ، وينزل العُصم^(٣) .

(١) مرجع .

(٢) أخذها من قول من قال : أنا عُدَيْقُها المرجب وجُدَيْلُها المحكك ، أى أنه ابن بجدتها وعمدة فيها .

(٣) إشارة إلى قول امرئ القيس : فأَنْزَل منه العصم من كل منزل . والعصم : جمع أعصم وهو الظبي الذي في ذراعه بياض .

فقلت : يا فاضلُ اذنُ فقد منيت ، وهاتِ فقد أنيت . فدنا وقال : سلوني أجيبكم ، واسمعوا أعجبكم ، فقلنا : ما تقول في امرئ القيس قال : هو أول من وقف بالديار وعرّصاتها . واغتندى والطير في وكنّاتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً ، ففصلَ مَنْ تفتّق للحيلة لسانه ، وانتجع للرغبة بنانه .

قلنا : فما تقول في النابغة ؟ قال : يثلبُ إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، ولا يرمى إلا صائباً .

قلنا فما تقول في زهير ؟ قال : يذيبُ الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسيح يوجبّه .

قلنا : فما تقول في طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاقُ خزائنه .

قلنا : فما تقول في جرير والفرزدق ، وأيهما أسبق ؟ فقال : جرير أرقُّ شعراً ، وأغزَرُ غزراً ، والفرزدقُ أمتن صخراً ، وأكثر فخرّاً ، وجرير أوجع هجواً ، وأشرف يوماً . والفرزدق أكثر روماً ، وأكرم قوماً ، وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا افتخر أجزى . وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفى .

قلنا : فما تقول في الحديثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر من المعاني حظاً ، والمتأخرون أطف صنعاً وأرقّ نسجاً .

قلنا : فلو أريت من أشعارك ، ورويت لنا من أخبارك ، قال : خذها في معرض واحد ، وقال :

أما تَرَوْنِي أَتَغَشَّى طِمْرًا^(١) ممتطياً في الشرِّ أمراً مُرّاً
مُضْطَبِّباً^(٢) على الليالي غمراً مُلاقياً منها صروفاً حُمراً
أقصى أمانى طُلوعِ الشَّعْرى^(٣) فقد عُنِينَا بِالْأَمَانِي دَهراً
وكان هذا الحُرُّ أعلى قدراً وماء هذا الوجه أغلى سِعْراً
ضربتُ للسرِّ قِباباً خُضْراً في دار دارا وإِوانِ كسرى
فانقلبَ الدهرُ ابطنَ ظَهْراً وعاد عُرْفُ العيشِ عِنْدِي نَكْراً
لم يبقَ من وَفْرى إِلَّا ذِكْراً ثم إلى اليومِ هَلَمْ جَرّاً
لولا عَجْوزِي لِي بَسْرٌ مَن رَأَى^(٤) وأفرخَ دون جبالِ بُصْرى
قد جلب الدهرُ عليهم ضراً قتلتُ يا سادةُ نفسى صَبْراً

قال عيسى بن هشام : فأنتله ما تاح ، وأعرض عنا فراح ، فجعلت أنفيه وأثبته ،
وأنكره وكأني أعرفه ، ثم دلتني عليه ثنياه فقلت : الإسكندري والله ، فقد كان
فارقنا خِشْفاً^(٥) ، ووافانا جِلْفاً ، ونهضت على إثره ، ثم قبضت على خصره ،
وقلت : ألسنت أبا الفتح ، ألم نربك فينا وليداً ، ولبتت فينا من عمرك سنين ،
فأى عجز لك بسر من را ؟ ! فضحك إلي وقال :

ويحك هذا الزمانُ زورُ فلا يغرنك الغرورُ
لا تلنزم حالةً ولكنْ دُرُ بالليالي كما تدورُ

(١) ثوب بال .

(٢) حاملاً .

(٣) كوكب .

(٤) سر من را أو سر من رأى : بلدة قرب بغداد .

(٥) الخشف : ولد الطي ويريد به هنا غلاماً .

المقامة الجاحظية

حدَّثنا عيسى بن هشام قال : أثارتنى ورفقةٌ وليمةٌ فأجبت إليها للحديث المأثور
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دعيتُ إلى كُرَاعٍ^(١) لأجبت ، ولو أهدى
إلى ذراعٍ لقبلت ، فأفضى بنا السير إلى دار :

تركتُ والحسنَ تأخذهُ تنتقى منه وتنتخبُ
فانتقتُ منه طرائقه واستزادتُ بعضَ ما تهبُ

قد فُرش بساطها ، وبسطت أنماطها ، ومُدَّ سِمَاطُها ، وقومٌ قد أخذوا
الوقت بين آسٍ مخضود^(٢) ، ووردٍ منضود ، ودَنٍ مفصود ، ونايٍ وعود ،
فصرنا إليهم وصاروا إلينا . ثم عكفنا على خِوانٍ قد ملئت حياضه ، ونَوَّرَتْ
رياضه ، واصطفَتْ جفائه ، واختلفت ألوانه ، فمن حالِكٍ بإزائه ناصع ، ومن
قَانٍ تلقاه فاقع ، ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخِوان ، وتسفر بين
الألوان ، وتأخذ وجوه الرُّغفان^(٣) ، وتفقأ عيون الجِفان ، وترعى أرض الجيران ،
وتجولُ في القصعة ، كالرُشخ^(٤) في الرقعة . يزحم باللقمة للقمّة ، ويهزم بالمضغة
المضغة ، وهو مع ذلك ساكت لا يندسُ بحَرْفٍ . ونحن في الحديث نجري معه
حتى وقف بنا على ذكر الجاحظ وخطابته ، ووصف ابن المقفع وذُرَابَتِهِ ، ووافق
أول الحديث آخر الخِوان ، وزلنا عن ذلك المِكان ، فقال الرجل : أين أنتم من
الحديث الذى كنتم فيه ؟ فأخذنا فى وصف الجاحظ ولَسَنِهِ^(٥) ، وحسن

(١) الكراع : مستدق الساق .

(٢) ملوى .

(٣) جمع رغيف .

(٤) واحد من حجارة الشطرنج .

(٥) اللسان : طلاقة اللسان .

سَنَنَهُ فِي الْفَصَاحَةِ وَسُنَنَهُ فِيمَا عَرَفْنَاهُ ، فَقَالَ : يَا قَوْمُ لِكُلِّ عَمَلٍ رِجَالٌ ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ ، وَلِكُلِّ دَارٍ سَكَانٌ ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ جَا حَظٌ ، وَلَوْ اِنْتَقَدْتُمْ ، لِبَطْل مَا اَعْتَقَدْتُمْ .

فَكُلُّ كَشَرَ لَهُ عَنْ نَابِ الْإِنْكَارِ ، وَأَشْمُ بَأْنَفِ الْإِكْبَارِ ، وَضَحِكْتُ لَهُ لِأَجْلَبِ مَا عِنْدَهُ ، وَقُلْتُ : أَفِدْنَا وَزِدْنَا ، فَقَالَ : إِنْ الْجَا حَظُ فِي أَحَدٍ شَقِي الْبَلَاغَةِ يَقِطِفُ ^(١) ، وَفِي الْآخِرِ يَقِفُ ، وَالْبَلِغُ مَنْ لَمْ يَقْصُرْ نَظْمُهُ عَنْ نَثَرِهِ ، وَلَمْ يُزِرْ كَلَامُهُ بِشَعْرِهِ ، فَهَلْ تَرَوْنَ لِلجَا حَظٍ شَعْرًا رَائِعًا ؟

قُلْنَا : لَا ، قَالَ : فَهَلُمُوا إِلَى كَلَامِهِ ، فَهُوَ بَعِيدُ الْإِشَارَاتِ ، قَلِيلُ الِاسْتِعَارَاتِ ، قَرِيبُ الْعِبَارَاتِ ، مُنْقَادٌ لِعَرِيَانِ الْكَلَامِ ^(٢) يَسْتَعْمَلُهُ ، نَفُورٌ مِنْ مَعْتَاصِهِ يَهْمَلُهُ ، فَهَلْ سَمِعْتُمْ لَهُ لَفْظَةً مَصْنُوعَةً ، أَوْ كَلِمَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ ؟ فَقُلْنَا : لَا ، قَالَ : فَهَلْ تَحَبُّ أَنْ تَسْمَعَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يُخَفِّفُ عَنْ مَنْكَبِيكَ وَيَنْمُ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ ، فَقُلْتُ : إِي وَاللَّهِ . قَالَ : فَأَطْلُقْ لِي عَنْ خِنْصْرِكَ ^(٣) ، بِمَا يَعِينُ عَلَى شُكْرِكَ ، فَغَلَّتْهُ رِدَائِي ، فَقَالَ :

لَعَمْرُ الَّذِي أَلْقَى عَلَى ثِيَابِهِ لَقَدْ حُشِيتُ تِلْكَ الثِّيَابُ بِهِ مَجْدًا
فَتَى قَمَرَتُهُ الْمَكْرَمَاتُ رِدَاءُهُ وَمَا ضَرَبْتُ قَدْحًا ^(٤) وَلَا نَصَبْتُ نَرْدًا ^(٥)
أَعِدْ نَظْرًا يَأْمَنُ جَانِي ثِيَابَهُ وَلَا تَدْعِ الْأَيَّامَ تَهْدِمُنِي هَدَا
وَقُلْ لِلأَوَّلَى إِنْ أَسْفَرُوا أَسْفَرُوا خَجَى وَإِنْ طَلَعُوا فِي غُمَّةٍ طَلَعُوا سَعْدًا

(١) يَقْصُرُ .

(٢) أَيْ الْكَلَامَ الَّذِي لَا تَزِينُهُ الْمُحْسِنَاتُ الْبَدِيعِيَّةُ وَالْبَيَانِيَّةُ .

(٣) يَعْنِي هَاتِ اعْطَيْنَا شَيْئًا ، أَوْ كَمَا يَقُولُ الْمُنْجَمَرُونَ : بَيَضَ الْكِتَابَ ، أَيْ ادْفَعْ شَيْئًا .

(٤) أَحَدُ السِّهَامِ الَّتِي يَتَقَامَرُونَ بِهَا .

(٥) النَّرْدُ تَطْلُقُ الْيَوْمَ عَلَى مَا يَسْمَوْنَهُ (طَاوِلَةُ الزَّهْرِ) .

صَلُّوا رَحِمَ الْعَلِيَا وَبُلُّوا لَهَامَهَا^(١) فخيرُ النـدى ماسحٌ وابلهُ نقدا
قال عيسى بن هشام : فارتاحت الجماعة إليه ، واثالثت الصَّلَاتُ عليه ، وقلت
لما تَأَسَّنَا : من أين مطلع هذا البدر ، فقال :

إِسْكَندَرِيَّةٌ دَارِي لَوْ قَرَّ فِيهَا قَرَارِي
لَكَنَّ لَيْلِي بِنَجْدٍ وَبِالْحِجَازِ نَهَارِي

ب - من المقامات الفكاهية

المقامة المَضِيرِيَّة

حدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ : كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ ، وَمَعِيَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيُّ ،
رَجُلٌ الْفَصَاحَةُ يَدْعُوهَا فَتَجِيهُهُ ، وَالْبِلَاغَةُ يَأْمُرُهَا فَتَطْيَعُهُ ، وَحَضَرْنَا مَعَهُ دَعْوَةَ
بَعْضِ التَّجَارِ فَقُدِّمَتْ إِلَيْنَا مَضِيرَةٌ^(٢) تُثْنِي عَلَى الْخِصْرَةِ ، وَتُتَرَجِّجُ فِي الْعَصْرَةِ ،
وَتُؤَذِّنُ بِالسَّلَامَةِ ، وَتَشْهَدُ لِمَعَاوِيَةَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ ، بِالْإِمَامَةِ ، فِي قِصْعَةِ يَزْلَ عَنْهَا
الْطَّرْفُ ، وَيَمُوجُ فِيهَا الظَّرْفُ ، فَلَمَّا أَخَذْتُ مِنَ الْخَوَانِ مَكَانَهَا ، وَمِنَ الْقُلُوبِ
أَوْطَانَهَا ، قَامَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيُّ يَلْعَنُهَا وَصَاحِبَهَا ، وَيَمَقْتُهَا وَآكِلَهَا ، وَيَثْلُبُهَا
وِطَانُجَهَا ، وَظَنَانَهَا يَمَزَحُ ، فَإِذَا الْأَمْرُ بِالضَّدِّ ، وَإِذَا الْمَزَاحُ عَيْنُ الْجَدِّ ، وَتَنْحَى
عَنِ الْخَوَانِ ، وَتَرْكُ مَسَاعِدَةِ الْإِخْوَانِ ، وَرَفْعُهَا فَارْتَفَعَتْ مَعَهَا الْقُلُوبُ ، وَسَافَرَتْ
خَلْفَهَا الْعَيُونُ ، وَتَحَلَّبَتْ لَهَا الْأَفْوَاهُ^(٣) ، وَتَلَمَّظَتْ لَهَا الشِّفَاهُ ، وَاتَّقَدَّتْ لَهَا
الْأَكْبَادُ ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الْفُؤَادُ ، وَلَكِنَّا سَاعَدْنَاهُ عَلَى هِجْرِهَا ، وَسَأَلْنَاهُ عَنْ

(١) لحمة مدلاة في سقف الحنك .

(٢) لعلها تشبه ما نسميه اليوم كبة أرمنية أو الكبة بلبنية .

(٣) سال لعابها .

أمرها ، فقال : قصّتي معها أطول من مصيبتى فيها ، ولو حدّثتكم بها لم آمن المقت وإضاعة الوقت ، قلنا : هات .

قال : دعانى بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمنى ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم^(١) ، إلى أن أجمته إليها وقتنا ، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حدّقها فى صنعتها ، وتأنقها فى طبخها ، ويقول : يا مولاي ، لو رأيتها ، والخرقة فى وسطها ، وهى تدور فى الدور ، من التنوّر إلى القدور ، ومن القدور إلى التنوّر ، تنفث بفيها النار ، وتدقّ بيديها الأبرار . ولو رأيت الدخان وقد غبّر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثر فى ذلك اخدّ الصقيل ، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقتنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته ، وأن يسعد بظعنيتها ، ولا سيما إذا كانت من طينته . وهى ابنة عمى لَحّا . طينتها طينتى ، ومدينتها مدينتى ، وعمومتها عمومتى ، وأرومتها أرومتى . لكنها أوسع منى خلُقًا ، وأحسن خلُقًا . وصدعنى بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلته . ثم قال : يا مولاي ، ترى هذه المحلة . هى أشرف محالّ بغداد يتنافس الأخيار فى نزولها . ويتغابر الكبار فى حلولها . ثم لا يسكنها غير التجار . وإنما المرء بالجار . ودارى فى السّطة^(٢) من قلاذتها ، والنقطة من دائرتها . كم تقدّر يا مولاي ، أنفق على كل دار منها ؟ قلّه تخمينًا ، إن لم تعرفه يقينًا . قلت : الكثير . فقال : يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ! وتنفس الصّعْداء ، وقال سبحان من يعلم الأشياء .

وانتهينا إلى باب داره . فقال : هذه دارى كم تقدّر يا مولاي ، أنفقتُ على هذه الطاقة . أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها

(١) أهل الكهف ، وكلهم مشهور .

(٢) الوسط .

وشكلها؟ أرايت بالله مثلها! انظر إلى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خطَّ بالبركار. وانظر إلى حذق النجار في صنعة هذا الباب. اتخذه من كم؟ قل: ومن أين أعلم. هو ساجٌّ من قطعة واحدة لا مأروض^(١) ولا عفن. إذا حرك أن، وإذا نُقر طن. من اتخذه يا سيدي؟ اتخذه أبو إسحق بن محمد البصرى، وهو، والله، رجل نظيف الأثواب. بصير بصنعة الأبواب، خفيف اليد في العمل. لله درُّ ذلك الرجل! بحياتي لا استعنت إلا به على مثله.

وهذه الحلقة تراها؟ اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزّية، وكم فيها يا سيدي من الشبه؟ فيها ستة أرتال، وهي تدور بلولب في الباب. بالله دورها، ثم أنقرها وأبصرها، وبحياتي عليك لا اشتريت الحلق إلا منه فليس يبيع إلا الأعلاق.

ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال: عمرك الله يا دار، ولا خربك يا جدار، فما أمتن حيطانك، وأوثق بنيانك، وأقوى أساسك! تأمل بالله معارجها وتبين دواخلها وخوارجها، وسلني: كيف حصلتها، وكَم من حيلة احتلتها، حتى عقدتها؟ كان لي جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن. مات رحمه الله وخلف خلفاً أنلفه بين الخمر والزمر، ومزقه بين النرد والقمر، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار، إلى بيع الدار، فيبيعهما في أثناء الضجر، أو يجعلها عرضة للخطر. ثم أراها، وقد فاتني شراها، فأقطع عليها حسرات، إلى يوم المات. فعمدت إلى أثواب لا تبيض^(٢) تجارتها، فحملتها إليه وعرضتها عليه، وساوته على أن يشتريها

(١) المأروض. الذي أكلته الأرضة.

(٢) كاسدة، غير نافقة.

نسيّة^(١) ، والمدير يحسب النسيّة عطية ، والمتخلف يعتدّها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لى ، ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترقّ فأتيته فاقتضيته ، واستمهلى فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرتة ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدىّ ، ووثيقة فى يديّ ، ففعل . ثم درّجته بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لى بجدّ صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساعٍ لقاعد ، وأنا بحمد الله مجدود . فى مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يامولاي ، أنى كنت منذ ليالٍ نائمًا فى البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب ، فقلت : من الطارق المنتاب ؟ فإذا امرأة معها عقدٌ لال . فى جلدة ماء ورقّ آل . تعرضه للبيع ، فأخذته منها إخذه خلّس ، واشتريته بثمانٍ بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله ودولتك ، وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدى فى التجارة ، والسعادة تنبسط الماء من الحجة ، الله أكبر ! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك . اشتريت هذا الحصير فى المنادة ، وقد أخرج من دور آل الفُرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات . وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجِد . والدهر حبلى ليس يدرى ما يلد . ثم اتفق أنى حضرتُ باب الطاق . وهذا يعرض فى الأسواق . فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمل بالله دقته ولينه ، وصنعتة ولونه . فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا فى الندر . وإن كنت سمعت بأبى عمران الحصىرى فهو عمله . وله ابن يخلفه الآن فى حانوته لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده . فبحياتى لا اشتريت الحصر إلا من دكانه ، فالمؤمن ناصحٌ لإخوانه ، لا سيما من تحرّم بخوانه .

ونعود إلى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام ، الطست والماء ،

فقلت : الله أكبر ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج . وتقدم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ؟ إنه رومي الأصل عراقي النشء . تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وانفض عن ذراعك ، وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر . ففعل الغلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ! اشتراه والله ، أبو العباس ، من النخّاس . ضع الطست ، وهات الإبريق ، فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره ، فقال : انظر إلى هذا الشبه ^(١) كأنه جذوة الذهب ، أو قطعة من الذهب ، شبه الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان ^(٢) الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها . تأمل حسنه وسلنى : متى اشتريته ! اشتريته والله عام المجاعة ، وادّخرته لهذه الساعة . يا غلام ، الإبريق ، فقدمه ، وأخذه التاجر فقلبه ، ثم قال : وأنبوه منه . لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست إلا في هذا البيت . ولا يجمع هذا البيت إلا مع هذا الضيف .

أرسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه أزرق كعين السنور ، وصافٍ كقضب البلور ، استقى من الفرات واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ، الشأن في الإناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه . وهذا المنديل ! سلنى عن قصته . فهو نسج جرجان ، وعمل أرجان ، وقع إلى فاشتريته ، فالتخذت امرأتى بعضه سراويلا ، واتخذت بعضه منديلا ، دخل في سراويلها عشرون ذراعاً ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعاً ، وأسلمته إلى المطرّز حتى صنعه كما تراه وطرزه . ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادّخرته للظّراف ، من

(١) الشبه : النحاس الأصفر أو البرونز .

(٢) الرث الهالى .

الأضياف ، لم تذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لماقيها ، فلكل علق يوم ، ولكل آلة قوم .

يا غلام ، اخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع ^(١) .
والطعام ، فقد كثر الكلام ، فأنى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المسكان ،
ونقره بالبنان ، وعجمه بالأسنان ، وقال : عمر الله بغداد فما أجودمتاعها ، وأظرف
صناعاتها !

تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر إلى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده
وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فتى الأكل ! ؟ فقال : الآن . عجل
يا غلام ، الطعام . لكنّ الخوان قوائمه منه .

قال أبو الفتح : فحاشت نفسي وقلت : لقد بقي الخبز وآلاته ، والخبز
وصفاته ، والحنطة من أين اشتريت أصلا ، وكيف اكرت لها حملا ، وفي أى
رحى طحن ، وإجانة ^(٢) عجن ، وأى تنور سجر ، وخباز استأجر ، وبقي الحطب
من أين احتطب ، ومتى جلب وكيف صنف حتى جفف وجبس ، حتى ييس .
وبقي الخبز ووصفه ، والتاميد ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخبير وشرحه ، والملح
وملاحته ، وبقيت السكرجات ^(٣) من اتخذها ، وكيف انتقدها ^(٤) ، ومن
عملها ، والخل كيف انتقى عنبه ، أو اشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته
واستخلص له . وكيف قير حبه ^(٥) ، وكم يساوى دنه ؛ وبقي البقل كيف
احتيل له حتى قطف ، وفي أى مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف ، وبقيت

(١) المجالدة والمقاتلة .

(٢) المكن الذي يعجن فيه .

(٣) آنية الطعام .

(٤) كيف اتصلت إليه بالشراء .

(٥) الخابية .

المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووُفِّي شحمها ، ونصبت قدرها ، وأُجِّبَتْ نارها ، ودُقَّتْ أبقارها ، حتى أجيد طبخها وعُقد مرقها ، وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم . فقامت ، فقال : أين تريد ؟! فقلت : حاجة أقضيها ، فقال : يامولاي تريد كنيفاً يُزري بريعي الأمير ، وخريفي الوزير ، قد جُصَّصَ أعلاه وصهرح أسفله ، وسُطِّحَ سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذرّ فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه بابٌ غيرانه ^(١) من خليطى ساجٍ وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه . فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب .

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح يا أبا الفتح ! المضيرة . وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقى رجلٌ الحجرَ بعلمته فغاص في هامته . فأخذت من النعال بما قدّم وحدت ، ومن الصفع بما طاب وخبت ، وحشرت إلى الحبس ، فأقت عامين في ذلك النحس ، فنذرت أن لا آكل مضيرةً ما عشت . فهل أنا في ذا يا آل همدان ظالم .

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ونذرنا نذره ، وقبلنا : قديماً جنت المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار .

ج - من المقامات القصصية

المقامة البشرية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكاً فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها وقال :
ما رأيت كالיום ! فقالت :

أعجبَ بشراً حورٌ في عيني وساعدُ أبيضُ كاللجين
ودونه مسرحَ طرفِ العينِ خمصانةٌ ترفلُ في حجَلين^(١)
أحسنُ من يمشى على رجليينِ لو ضمَّ بشرٌ بينها وبيني
أدامَ هجري وأطالَ بيني^(٢) ولو يقيسُ زينها بزيني

لأسفرَ الصبحُ لذي عيدين

قال بشر : ويحك ! من عانيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال : أهى من الحسن بحيثُ وصفت . قالت : وأزيد وأكثر ، فأنشأ يقول :

ويحك يا ذاتَ الثنايا البيضِ^(٣) ما خِلتُنِي منك بمُستعيضِ
فالآن إذ لوحتِ بالتعريضِ خلوتِ جواً فاصفري وبيضي^(٤)
لا ضمَّ جفناي على تغميضِ ما لم أشلُ عرضي من الخضيضِ^(٥)

(١) خمصانة : ضامرة الكشح . الحجل الخلل .

(٢) البين : الفراق .

(٣) الثنايا : الأسنان .

(٤) إشارة إلى قول كليب وائل للقبرة التي نزلت حماء :

يا لك من قبرة بمحجر - خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونفري ما شئت أن تنفري

(٥) أشل : أرفع .

فَقَالَتْ :

كَمْ خَاطَبَ فِي أَمْرِهَا أَلْحَا وَهِيَ إِلَيْكَ ابْنَةُ عَمٍّ لَحَا
 ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى عَمِّهِ يَخْطُبُ ابْنَتَهُ ، وَمَنْعَهُ الْعَمُّ أَمْنِيَّتَهُ ، فَآلَى أَلَا يُرْعَى ^(١) عَلَى
 أَحَدٍ مِنْهُمْ إِنْ لَمْ يَزُوجْهُ ابْنَتَهُ ، ثُمَّ كَثُرَتْ مَضَرَّاتُهُ فِيهِمْ ، وَاتَّصَلَتْ مَعَرَّتُهُ إِلَيْهِمْ ،
 فَاجْتَمَعَ رِجَالُ الْحَيِّ إِلَى عَمِّهِ وَقَالُوا : كَفَّ عَنَّا مَجْنُونُكَ فَقَالَ : لَا تَلْبَسُونِي عَارًّا ،
 وَأَمْهَلُونِي حَتَّى أَهْلِكَ بِبَعْضِ الْحَيْلِ ، فَقَالُوا : أَنْتَ وَذَاكَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ عَمُّهُ : إِنْ
 آلَيْتَ أَنْ لَا أَزُوجَ ابْنَتِي هَذِهِ إِلَّا مِنْ يَسُوقُ إِلَيْهَا أَلْفَ نَاقَةٍ مَهْرًا وَلَا أَرْضَاهَا
 إِلَّا مِنْ نَوْقِ خَزَاعَةٍ ، وَغَرَضُ الْعَمِّ كَانَ أَنْ يَسْلُكَ بَشَرَ الطَّرِيقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَزَاعَةٍ
 فَيَفْتَرِسُهُ الْأَسَدُ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ قَدْ كَانَتْ تَحَامَتُ عَنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ وَكَانَ فِيهِ أَسَدٌ
 يُسَمَّى دَاذًا وَحَيَّةٌ تَدْعَى شَجَاعًا يَقُولُ فِيهِمَا قَاتِلُهُمَا :

أَفْتَكُ مِنْ دَاذٍ وَمِنْ شَجَاعٍ إِنْ يَكُ دَاذٌ سَيِّدُ السَّبَاعِ
 فَإِنَّهَا سَيِّدَةُ الْأَفَاعِ

ثُمَّ إِنْ بُشِّرَا سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ فَمَا نَصَفَهُ ^(٢) حَتَّى لَقِيَ الْأَسَدَ وَقَمَصَ مَهْرَهُ
 فَفَزَلَ وَعَقَرَهُ ، ثُمَّ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ إِلَى الْأَسَدِ وَاعْتَرَضَهُ ، وَقَطَعَهُ ^(٣) ثُمَّ كَتَبَ بِدَمِ الْأَسَدِ
 عَلَى قَيْصِهِ إِلَى ابْنَتِهِ عَمَّهُ :

أَفَاطَمَ لَوْ شَهِدْتَ بِيَطْنَ خَبْتٍ وَقَدْ لَاقَى الْمَزْبِرُ أَخَاكَ بِشْرَا
 إِذَا لَرَأَيْتَ لَيْثًا زَارَ لَيْثًا هَزْبَرًا أَغْلَبَا لَاقَى هَزْبَرًا
 تَبْهِنَسُ ^(٤) ثُمَّ أَحْجَمَ عَنْهُ مُهْرِي مُحَاذَرَةً فَقَلَّتْ عُقْرَتَ مُهْرَا

(١) يَبْقَى .

(٢) نَصَفَهُ : بَاغَ مَنْتَصِفَهُ .

(٣) قَطَعَهُ عَرْضًا .

(٤) تَبْخَتِرُ .

أَنْلِ قَدَمِي ظَهَرَ الْأَرْضَ إِنِّي
وَقَلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبْدَى نَصَالاً^(١)
يَكْفِكْفُ غِيْلَةً إِحْدَى يَدَيْهِ
يُدِلُّ بِمَخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ
وَفِي يُمْنَايَ مَاضِيَ الْحَدِّ أَبْقَى
أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا فَعَلْتُ ظُبَاهُ
وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى
وَأَنْتَ تَرُومُ لِلْأَشْبَالِ قُوَّتًا
فَقِيمَ تَسُومُ مِثْلِي أَنْ يُوَلَّى
نَصَحْتِكَ فَالْتَمَسْ يَا لَيْثُ غَيْرِي
فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّ الْعَشَّ نَصَحِي
مَشَى وَمَشَيْتُ مِنْ أَسْدِينَ رَامَا
هَزَزْتُ لَهُ الْحُسَامَ فَخَلْتُ أَنِي
وَجَدْتُ لَهُ بِجَائِشَةٍ أَرْتَهُ
وَأَطْلَقْتُ الْمُهَنْدَ مِنْ يَمِينِي
فَحَرَّ مَجْدَلًا بَدَمٍ كَأَنِي
وَقَلْتُ لَهُ يَعِزُّ عَلَيَّ أَنِي
وَلَكِنْ رَمْتُ شَيْئًا لَمْ يَرْمُهُ

رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهْرًا
مَحْدَدَةً وَوَجْهًا مَكْفَهْرًا
وَيَبْسُطُ لِلْوُثُوبِ عَلَيَّ أُخْرَى
وَبِالْحِظَاتِ تَحْسِبُهُنَّ جَمْرًا
بِمَضْرَبِهِ قِرَاعُ الْمَوْتِ أَثْرًا^(٢)
بِكَائِمَةِ غَدَاةٍ لَقِيتُ عَمْرًا
مِصَاوِلَةً فَكَيْفَ يَخَافُ ذُعْرًا
وَأَطْلُبُ لَابِنَةَ الْأَعْمَامِ مَهْرًا
وَيَجْعَلُ فِي يَدَيْكَ النَّفْسَ قَسْرًا
طَعَامًا إِنَّ لِحْمِي كَانَ مُرًّا
وَخَالَفَنِي كَأَنِّي قُلْتُ هُجْرًا
مَرَامًا كَانَ إِذْ طَلَبَاهُ وَعْرًا
شَقَقْتُ بِهِ لَدَى الظَّامَاءِ فُجْرًا
بَأَنْ كَذَبْتُهُ مَا مَنَنْتُهُ غَدْرًا
فَقَدَّ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرًا
هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مَشْمَخْرًا
قَتَلْتُ مَنَاسِبِي جَلْدًا وَقَهْرًا
سِوَاكَ فَلَمْ أَطِقْ يَا لَيْثُ صَبْرًا

(١) حديدية السيف وهو يعنى أنياباً .

(٢) الأثر : بضم الهمزة ندوب الجراح وثلمات السيوف .

تحاول أن تعلمنى فراراً لعمرُ أبيك قد حاولتْ نُسكراً
 فلا تجزعْ فقد لاقيتَ حرّاً يحاذرُ أن يُعابَ فتّ حرّاً
 فإنْ تكُ قد قُتلتَ فليسَ عاراً فقد لاقيتَ ذا طرفينَ حرّاً
 فلما بلغتِ الأبياتَ عمه ندم على ^(١) ما منعه تزويجها ، وخشى أن تغتاله الحية
 فقام في أثره وبلغه وقد ملكته سورةُ الحية ، فلما رأى عمّه أخذته حمية الجاهلية
 فجعل يده في فم الحية وحكم سيفه فيها فقال :

بشرٌ إلى المجد بعيدٌ همُّه لما رآه بالعراء عمُّه
 قد ثكلته نفسه وأُمُّه جاشتْ به جاشةٌ تهمةُ
 قام إلى ابنٍ للفلا يومُّه فغابَ فيه يدهُ وكمُّه
 ونفسه نفسى وسمى سَمُّه

فلما قتل الحية قال عمّه : إني عرضتك طمعاً في أمرٍ قد ثنى الله عناني عنه ،
 فارجع لأزوجك ابنتي . فلما رجع جعل بشر يملأُ فيه فخراً حتى طلع أمرد كَشِقِّ
 القمر على فرسه مدججاً في سلاحه ، فقال بشر : يا عم ، إني أسمع حسَّ صيد ،
 وخرج فإذا بـغلامٍ على قيد ، فقال : ثكلتك أمُّك يا بشر ، إن قُتلتَ دودةً
 وبهيمة تملأُ ماضيك فخراً ! أنت في أمان إن سلّمتَ عمك . فقال بشر : من
 أنت لا أم لك ، قال : اليومُ الأسود والموت الأحمر ، فقال بشر : ثكلتك
 من سلّحتك ^(٢) . فقال : يا بشر ، ومن سلحتك .

وكرّر كل واحد منهما على صاحبه ، فلم يتمكن بشر منه ، وأمكن الغلامُ
 عشرون طعنة في كلية بشر كلما مسّه شبا السنان ^(٣) حماه عن بدنه إبقاءً عليه ،

(١) ما مصدرية بمعنى أن .

(٢) من ألقتك من بطنها .

(٣) شبا السنان : حده .

ثم قال : يا بشر كيف ترى ، أليس لو أردتُ لأطعمتك أنياب الرمح ؟ ثم ألقى رمحه واستلَّ سيفه فضرب بشراً عشرين ضربة بعرض السيف ولم يتمكن بشر من واحدة ، ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب في أمان ، قال : نعم ولكن بشرطة أن تقول لي من أنت ، فقال : أنا ابنك . فقال : يا سبحان الله ما قارنت عقيلة قط فأنتي لهذه المنحة ! فقال : أنا ابن المرأة التي دلتك على ابنة عمك فقال بشر :

تلك العصا من هذه العصية^(١) هل تلد الحية إلا الحية
وحلف لا ركب حصاناً ولا تزوج حصاناً^(٢) ، ثم زوج ابنة عمه لابنه .

المقامة الأسدية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغني من مقامات الإسكندري ومقاتلته ما يصغى إليه النفور^(٣) ، وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا أسأل الله بقاءه ، حتى أرزق لقاءه ، وأتعجب من قعود همته بحالته ، مع حسن آله ، وقد ضرب الدهر شؤونه بأسداد^(٤) دونه ، وهلمَّ جرّاً ، إلى أن اتفقت لي حاجة بحمص ، فشحذت إليها الحرص ، في صحبة أفراد كنجوم الليل ، أحلاس^(٥) لظههور الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ، ونستأصل شأفته ، ولم نزل نفرى أسنة النجاد بتلك الجياد ، حتى صرن كالعصى ، ورجعن كالقسي .

(١) العصا من العصية : مثل قديم فالعصا اسم فرس جذيمة الأبرش والعصية اسم أمها .

(٢) الحصان : بفتح الحاء المرأة العفيفة .

(٣) النفور : وزن فعول : الكثير النفار .

(٤) جمع سد .

(٥) ملازمين لها .

وتاح لنا وادٍ في سفح جبل ذي الاءِ وأثل^(١) كالعداري يسرّحن الضفائر ،
وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ، ونزلنا نغور ونغور ، وربط الأفراس
بالأمراس ، وملنا مع النعاس ، فمارعنا إلا صهيل الخيل . ونظرت إلى فرسى
وقد أرهف أذنيه ، وطمح بعينيه ، يحدّ^(٢) قوى الحبل بمشافره ، ويحدّ خدّ الأرض
بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال وقطعت الجبال ، وأخذت نحو
الجبال ، وطار كل واحد منا إلى سلاحه فإذا السبع في فروة الموت ، قد طلع
من غابه ، منتفخاً في إهابه ، كاشراً عن أنيابه ، بطرف قد ملئ صلفاً ،
وأنف قد حشى أنفاً ، وصدر لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا
خطب ملى ، وحادث مهم ، وتبادر إليه من سرعان^(٣) الرقعة فتى :

أخضر الجلدة في بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب^(٤)

بقلب ساقه قدر ، وسيف كله أثر ، وملسكه سورة الأسد لخاتته أرض
قدمه ، حتى سقط ليده وفه ، وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ، ودعا
الحين أخاه بمثل ما دعاه فصار إليه ، وعقل الرعب يديه ، فأخذ أرضه ، وافتش
الليث صدره ، ولكن رميته بهامتي وشغلت فمه ، حتى حقنت دمه . وقام الفتى
فوجأً^(٥) بطنه حتى هلك الفتى من خوفه ، والأسد للوجأة في جوفه ، ونهضنا
في إثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت وتركنا ما أفلت ، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه .

فلما حثونا التراب فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

(١) شجر .

(٢) يقطع .

(٣) جمع سريع .

(٤) الشطر الثاني من البيت مثل يراد به بلوغ الغاية والنهاية .

(٥) شق .

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها ، وسرنا حتى إذا ضمرت المَزَادُ^(١) ، ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاذ ، ولم تملك الذهاب ولا الرجوع ، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصمدنا صمده ، وقصدنا قصده ، ولما بلغنا نزل عن حرّ فرسه ، ينقش الأرض بشفتيه ، ويلقى التراب بيديه ، وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى ، وتحرم بجنايى ، ونظرت فإذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل ، وقوام متى ما ترقّ العين فيه تسهل ، وعارض قد اخضرّ ، وشارب قد طر^(٢) ، وساعد ملآن ، وقضيب ريّان ، ونجار تركى ، وزى ملكى .

فقلنا : مالك لا أبأ لك ! فقال : أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم ، فهمت على وجهى إلى حيث ترانى . وشهدت شواهد حاله ، على صدق مقاله ، ثم قال : أنا اليوم عبدك ، ومالى مالك ، فقلت : بشرى لك وبك . أدّاك سيرك إلى فناء رحب ، وعيش رطب .

وهنا أتى الجماعة ، وجعل ينظر فتفتننا الحاظه ، وينطق فتقتلنا ألفاظه ، فقال : يا سادة ، إن فى سفح الجبل عيناً وقد ركبتم فلاة عوراء ، فخذوا من هنالك الماء ، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار ، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان ، وركب الجنادب^(٣) العيدان ، فقال : ألا تقيلون^(٤) فى هذا الظلّ الرّحّب ، على هذا الماء العذب ، فقلنا : أنت وذاك .

فنزل عن فرسه وحلّ منطقتة ، ونحى قرطقتة^(٥) ، فما استتر عنا إلا بغلالة تنمّ على بدنه ، فما شككنا أنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان ، وهرب من

(١) المزاد : جمع مزادة وهى قرينة الماء .

(٢) طلع .

(٣) نوع من الجراد .

(٤) أى ألا تستسلمون إلى التليولة وهى النوم بعد الظهر .

(٥) قباء بلا بطانة .

رضوان . وعمد إلى السروج فخطها ، وإلى الأفراس فحشها ، وإلى الأمكنة
فرشها ، وقد حارت البصائر فيه ، ووقفت الأبصار عليه ، فقلت : يا فتى ،
ما أظفك في الخدمة ، وأحسنك في الجملة ، فالويل لمن فارقتك ، وطوبى لمن
رافقتك ، فكيف شكر الله على النعمة بك ؟ ! فقال ما سترونه منى أكثر . أتعجبكم
خفتي في الخدمة ، وحسني في الجملة ، فكيف لو رأيتموني في الرفقة ، أريكم من
حذق طرْفًا ، لتزدادوا بي شغفًا ؟ فقلنا : هات ، فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره
وفوق سهمًا فرماه في السماء ، وأتبعه بأخر فشقه في الهواء .

وقال : سأريكم نوعًا آخر ، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها وإلى فرسى فعلاه ،
ورمى أحدنا بسهم أثبتته في صدره ، وآخر طيره من ظهره ، فقلت : ويحك
ما تصنع ؟ ! قال : اسكت يا لكع^(١) ، والله ليشدن كل منكم يد رفيقه ، أو
لأغصنه بريقه .

فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة ، وسروجنا محطوطة ، وأسلحتنا بعيدة
وهو راكب ونحن رجالة ، والقوس في يده يرشق بها الظهور ، ويمشق بها
البطون والصدور ، وحين رأينا الجد ، أخذنا القد^(٢) ، فشد بعضنا بعضًا
وبقيت وحدي لا أجد من يشد يدي ، فقال : اخرج بإهابك ، عن ثيابك ،
فخرجت . ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر ، وينزع ثيابه ،
وصار إلى ، وعلى خُفَّان جديدان ، فقال : على خلعه ، ثم دنا إلى لينزع
الخف ، ومددت يدي إلى سكين كان معي في الخف ، وهو في شغله فأثبتته في
بطنه ، وأثبتته من مَتْنِهِ ، فما زاد على فم فغره^(٣) ، وألقمه حجره .

(١) اللئيم .

(٢) سير من جلد .

(٣) فتحة .

وقت إلى أصحابي فخلت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين ، وأدركنا الرفيق
وقد جاد بنفسه ، وصار لرمسه ، وصرنا إلى الطريق ووردنا حص بعد ليالٍ
خمس ، فلما انتهينا إلى فُرْضَةٍ^(١) من سُوْقها رأينا رجلاً قد قام على رأس ابنٍ
وَبَنِيَّةٍ ، بحراب وعُصِيَّة وهو يقول :

رَحِمَ اللهُ مَنْ حَشَا فِي جِرَابِي مَكَارِمَهُ
رَحِمَ اللهُ مَنْ رَنَا لِسَعِيدٍ وَفَاطِمَةَ
إِنَّهُ خَادِمٌ لَكُمْ وَهِيَ لَا شَكَّ خَادِمَةٌ

قال عيسى بن هشام : فقلت إن هذا الرجل هو الإسكندري الذي سمعت به ،
وسألت عنه فإذا هو هو فدلقت إليه ، وقلت : احْتَكِمْ حُكْمَكَ ، فقال :
درهم ، فقلت :

لَكَ دَرَهْمٌ فِي مِثْلِهِ مَا دَامَ يَسْعِدُنِي النَّفْسُ
فاحسب حسابك والتمس كَيْمَا أُتِيلَ الْمُتَمَسُّ

وقلت له : درهمٌ في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيتُ إلى
العشرين ثم قلت : كم مَعَكَ ؟ قال : عشرون رغيفاً ، فأمرت له بها ، وقلتُ :
لا نصرَ مع الخِذْلَانِ ، ولا حيلة مع الحِرْمَانِ .

(١) الفُرْضَةُ : المنفرج .

المقامة المكفوفية

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : كنت أجتازُ في بعض بلادِ الأهواز ، وقصاراى
لفظةُ شَرودُ أصيدها ، وكلمة بليغة أستزيدها ، فأداني السيرُ إلى رقعةٍ فسيحة من
البلد ، وإذا هناك قوم مجتمعون على رجل يستمعون إليه وهو يخبطُ الأرض بعصا
على إيقاعٍ لا يختلف ، وعلمت أن مع الإيقاع لحناً ، ولم أبعُدْ لأنال من السماع
حظاً ، أو أسمع من الفصيح لفظاً ، فما زلت بالنظارة أزحم هذا وأدفع ذاك حتى
وصلت إلى الرجل ، وسرحتُ الطرفَ منه إلى حُرقة^(١) كالقرني ، أعمى
مكفوف ، في شَملةِ صوف ، يدور كالخُذروف^(٢) ، متبرساً بأطول منه ، معتمداً
على عصافيهما جالجل يخبط الأرض بها على إيقاع غنج ، بلحنٍ هَزج ،
وصوتٍ شَجج ، من صدر حَرَج ، وهو يقول :

يا قومُ قد أثقلَ ديني ظهري وطالبتني طَلَّتِي^(٣) بالمهرِ
أصبحتُ من بعد غنىٍ ووفرٍ ساكنَ فقرٍ وحليفَ فقرِ
يا قومُ هل بينكم من حُرٍّ يعينني على صروف الدهرِ
يا قومُ قد عيل لفقرى صَبْرِي وانكشفتُ عنى ذيلُ السَّترِ
وفضَّ ذا الدهرُ بأيدي البَترِ ما كان لي من فضةٍ وتَبَرِ
أوى إلى بيتٍ كقيدِ شَبَرِ حاملَ قَدَرٍ وصغيرَ قَدَرِ

(١) قصير كبير البطن . والقرني الخنفساء .

(٢) لعبة للصبيان شبه بها امرؤ القيس : درير كخذروف الوليد ... إلخ .

(٣) الزوجة .

لو ختمَ اللهُ بخيرِ أمرى أعقبني عن عسرٍ يسرٍ
هل من فتىٍ فيكم كريمٍ النَّجَرِ^(١) محتسبٍ فيَّ عظيمٍ الأجرِ
إن لم يكن مغتنياً للشكرِ

قال عيسى بن هشام : فرق له والله قلبي واغرورقت له عيني ، فنتلته ديناراً
كان معي ، فما لبث أن قال :

يا حسنَهَا فاقعةٌ^(٢) صفراءُ ممشوقةٌ منقوشةٌ قوراءُ
يكادُ أن يقطرَ منها الماءُ قد أثمرتها همّةٌ علياءُ
نفسٌ فتىً يملكهُ السَّخاءُ يصرفهُ فيه كما يشاءُ
يا ذا الذي يعنيه ذا الثَّناءُ ما يتقصَّى قدرَكَ الإطراءُ
امضِ إلى الله لك الجزاءُ

ورحمَ اللهُ من شدَّها في قرنٍ^(٣) مثلها ، وأنسها بأختها ، فناله الناس ما نالوه ،
ثم فارقههم وتبعته وعلمت أنه متعامٍ لسرعة ما عرف الدينار ، فلما نظمنا خلوةً
مددتُ يميني إلى يُسرَى عَضْدِيهِ وقلت : والله لَتُرِيَنِي سركَ ، أو لأُكشِفَنَّ
ستركَ ، ففتتح عن توأمتي لَوْزَ^(٤) . وحدثت لثامه عن وجهه فإذا والله شيخنا
أبو الفتح الإسكندري ، فقلت : أنت أبو الفتح ! فقال : لا

أنا أبو قَلَمُونٍ في كلِّ لونٍ أكونُ
اختر من الكسبِ دُونَا فإنَّ دهرَكَ دونُ

(١) الأصل .

(٢) شديدة الصفرة .

(٣) النبر .

(٤) يقصد ما تقولوه العوام : عيون لوزية .

زَجَّ الزَّمانَ بِحُمُقٍ إِنَّ الزَّمانَ زَبُونٌ^(١)
لا تَكْذِبَنَّ بِعَقْلٍ ما العَقْلُ إِلَّا الجُنُونُ

المقامة الفزارية

حدَّثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ في بعضِ بلادِ فَرَارةٍ مرتحلاً نَجِيبَةً ،
وقائداً جَنِيبَةً^(٢) ، يَسْبَحانِ بِي سَبْحاً ، وأنا أَهَمُّ بالوطنِ فلا الليلُ يثنيُّنِي بوَعِيدِهِ ،
ولا البعدُ يلوِّني ببِيدِهِ ، فظَلَّمتُ أَخْبَطُ ورَقَ النِّهارِ بعِصا التَّسيارِ ، وأخوضُ
بُطنَ اللَّيلِ ، بجوافِرِ الخَليلِ ، فمِئنا أنا في ليلَةٍ يَضِلُ فيها الغَطاطُ^(٣) ، ولا يَبْصُرُ فيها
الوطواطُ ، أَسِيحُ سَيْحاً ولا سَاحِجُ إِلَّا السَّبْعُ ، ولا بارِحُ إِلَّا الضَّبْعُ ، إذْ عَنَّ
لِي راکِبٌ تَأَمُّ الآلاتِ يومَ الأَثَلاتِ ، يطوِي إلى مَنشورِ الفَلواتِ ، فأخَذني
منهُ ما يَأخُذُ الأَعزَلُ ، من شاكِي السَّلاحِ . لَكِنِّي تَجَلَّدْتُ فَقَلْتُ أرضَكَ لا أُمَّ
لَكَ فِدونَكَ شَرطَ الحِدادِ ، وخرطُ القَتادِ ، وخَصَمُ ضَخَمٍ ، وَحِمَّةُ أَرْدِيَّةٍ ،
وأنا سَلَمٌ إِنْ شئتُ ، وحَرْبٌ إِنْ أَرَدْتُ ، فَقُلْ لِي من أَنْتَ ؟

فقال : سَلماً أَصَبْتُ ، فَقُلْتُ : خَيراً أَجِبتُ ، فمَنْ أَنْتَ ؟ قال : نَصِيحٌ إِنْ
شاورْتُ ، فَصِيحٌ إِنْ حاوَرْتُ ، ودونِ اسمي ائْثامٌ ، لا تَمِيطُهُ الأَعْلَامُ .

قلت : فَمِا الطَّعْمَةُ^(٤) ؟ قال أَجوبُ جِيوبِ البَلادِ ، حَتَّى أَقَعَ على جَفَنَةٍ

جِوادٍ ، وَلِي فُؤادٌ يَخْدُمُهُ لسانٌ ، وبيانٌ يرقمُهُ بَنانٌ ، وقِصاراي كَرِيمٌ يَخْفِضُ لِي
جَنِيبَتَهُ^(٥) ، وَيَنْفِضُ لِي حَقِيبَتَهُ ، كَأَنَّ حَرَّ طَلَعٍ علىَّ بِالْأَمْسِ ، طُلُوعَ الشَّمْسِ ،

(١) يشبه الزمان بهيمة ترفس وقت الحلب .

(٢) دابة أخرى يركبها إذا تعبت الأولى وهكذا .

(٣) القطا .

(٤) الحرقفة . أسلوب المعاش .

(٥) فردة الحمل .

وغرب عني بغروبها ، لكنه غاب ولم يغب تذكاره ، وودّع وشيعتي آثاره ،
ولا يُنبئكَ عنها ، أَقْرَبُ منها ، وأوماً إلى ما كان لبسه .

فقلت : شحاذ وربّ الكعبة أخذ ، له في الصنعة نفاذ ، بل هو فيها
أستاذ ، ولا بدّ من أن ترشح له وتسحّ عليه .

فقلت : يا فتى ، قد جليت عبارتك فأين شعرك من كلامك ؟ فقال : وأين
كلامي من شعري ! ثم استمد غريزته ، ورفع عقيرته بصوت مالأ الوادي وأنشأ يقول :

وأروع أهداهُ ليَ الليلُ والفلا وخسّ تمسُّ الأرض لكن كلاً ولا
عرضتُ على نارِ المكارم عودَهُ فكان مُعمّاً في السيادةِ مُحولاً
وخادعته عن ماله فخدعتهُ وساهلتهُ من برّه فتسهلاً
ولما تجالينا وأحمدَ منطقي بلاني من نظمِ القريضِ بما بلا
فما هزّ إلا صارماً حين هزّني ولم يلقني إلا إلى السبقِ أوّلاً
ولم أَرَهُ إلا أغرَّ محجلاً وما تحته إلا أغرَّ محجلاً

فقلت له : على رسلك يا فتى . ولك فيما يصحبني حكّمك ، فقال : الحقيقة بما
فيها ، فقلت : إن^(١) وحاملتها ، ثم قبضت بجمعي عليه وقلت : لا والذي ألهمها
لنمسا ، وشقتها من واحدةٍ خمسا ، لا تزيّلني أو أعلم علمك ، فحدّر لثامه عن وجهه
فإذا هو ، والله ، شيخنا أبو الفتح الإسكندري ، فما لبثت أن قلت .

توشّحت أبا الفتح بهذا السيفِ مختالاً

فما تصنعُ بالسيفِ إذا لم تكُ قتالاً

فصنّع ما أنتَ حليتَ به سيفكَ خلخالاً

(١) إن هنا بمعنى نعم .

المقامة الوصية

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما جهّز أبو الفتح الإسكندري ولده للتجارة أقعده يوصيه فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم :

يا بُنَيَّ ، إني وإن وثقتُ بمتانة عقلك ، وطهارةِ أصلك ، فإني شفيقٌ والشفيقُ سيئُ الظن ، ولستُ آمنُ عليك النفس وسلطانها ، والشهوة وشيطانها ، فاستعن عليهما نهارك بالصوم ، وليلك بالنوم ، إنه لبوسٌ ظهارتهُ الجوع ، وبطانتُهُ الهُجُوع ، وما لبسهما أسدٌ إلا لأنت سورتهُ ، أفهيمتهما يا ابن الخبيثة !

وكما أخشى عليك ذاك فلا آمنُ عليك إصين أحدهما الكرم ، واسم الآخر القرم^(١) فإياك وإياهما . إن الكرم أسرعُ في المال من السوس ، وإن القرم أشأمُ من البسوس^(٢) ، ودعني من قولهم : إن الله كريم ! إنها خدعة الصبي عن اللب ، بلى إن الله لسكريم ، ولكنَّ كرم الله يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضره ، ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم خصاله ، فأما كرم لا يزيدك حتى

(١) القرم : شدة الشهوة إلى أكل اللحم .

(٢) البسوس : خالة جساس بن مرة يضرب بها المثل في الشؤم ذلك أنها كانت السبب في نشوب الحرب بين بكر وتغلب بأبيات من الشعر أغرت بها صدر جساس فقتل كليب وائل في ناقة لرجل من جرم يسمى سعداً كان كليب قد قتلها لأنه وجدها في مرعاه وكان جساس قد حمى الرجل . أما الأبيات وتسمى بالموثبات فهي هذه :

لعمري لو أصبحت في دار منقذ	لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة	مقي يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل	فإنك في قوم عن الحار أموات
ودونك أذوادى إليك فإنني	محاذرة أن يغدروا ببنياتي
وسر نحو جرم إن جرماً أعزة	ولا تلك فينا لاهياً بين نسوات

ينقصني ، ولا يرشك حتى يبريني ، فخذلانٌ لا أقول عبقرى ، ولكن بقرى ،
أفهمتهما يا ابن المشؤومة .

إنما التجارة تُنبطُ الماء من الحجارة ، وبين الأكلة والأكلة ربح البحر ،
بيد أن لا خطر ، والصينُ غير أن لا سفر . أفتركه وهو معرضٌ ثم تطلبه وهو
مُعوز ، أفهمتهما لا أم لك !

إنه المال عافاك الله فلا تنفقن إلا من الربح ، وعليك بالخبز والملح ، ولك في
الخلّ والبصل رخصة ما لم تذمّهما ، ولم تجمع بينهما ، واللحم لحمك وما أراك
تأكله ، والخلو طعامٌ من لا يبالي على أى جنبه يقع ، والوجبات عيش
الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الفوت ، وعلى الشبّع داعية الموت ، ثم
كن مع الناس كلاعب الشطرنج : خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك .

يا بنى ، قد أسمعتُ وأبلغت ، فإن قبلتَ فالله حسبيك ، وإن أبيتَ فالله
حسيبك^(١) ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

هـ — من المقامات المدحية

المقامة الملوكية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت في منصرفي من اليمن ، وتوجهي إلى
نحو الوطن ، أسرى ذات ليلة لا سانح بها إلا الضبّع ، ولا بارح إلا السبّع ، فلما
انقضى نصلُ الصباح ، وبرز جبين المصباح ، عن لي في البراح^(٢) ، راكبٌ
شاكي السلاح ، فأخذني منه ما يأخذ الأعزل ، من مثله إذا أقبل ، لكني
تجلدت فوقفت ، وقلت : أرضك لا أم لك ، فدوني شرط الحداد ، وخرط

(١) محاسبك

(٢) الأرض الجرداء الواسعة .

القتاد ، وحمية أزدية ، وأنا سلم إن كنت ، فمن أنت ، فقال : سلماً أصبت ،
ورقيقاً كما أحببت ، فقلت : خيراً أجب ، وسرنا فلما تخالينا ، وحين تجالينا ،
أجلت القصة عن أبي الفتح الإسكندري ، وسألني عن أكرم من لقيته من الملوك ،
فذكرت ملوك الشام ، ومن بها من الكرام ، وملوك العراق ومن بها من
الأشراف ، وأمراء الأطراف ، وسقت الذكر ، إلى ملوك مصر ، فرويت ما رأيت
وحدثته بعوارف ملوك اليمن ، واطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الجملة ،
بذكر سيف الدولة ، فأنشأ يقول :

ياسارياً بنجوم الليل يمدحها ولورأى الشمس لم يعرف لها خطراً
وواصفاً للسواقى هبك لم تزر البحر المحيط ألم تعرف له خبراً !
من أبصر الدر لم يعدل به حجرًا ومن رأى « خلقاً » لم يذكر البشرًا
زره تزر ملكا يعطى بأربعة لم يحوها أحد وانظر إليه ترى
أيامه غرراً ، ووجهه قمرًا وعزمه قدرًا ، وسنيبه مطرا
ما زلت أمدح أقواماً أظنهم صفو الزمان فكانوا عنده كدرا

قال عيسى بن هشام ، فقلت : من هذا الملك الرحيم الكريم ، فقال : كيف
يكون ، ما لم تبلغه الظنون ، وكيف أقول ، ما لم تقبله العقول ، ومتى كان ملك
يأنف الأكارم ، إن بعثت بالدرهم ، والذهب ، أيسر ما يهب ، والألف ،
لا يعمه إلا الخلف ، وهذا جبل الكحل قد أضر به الميل^(١) ، فكيف لا يؤثر
ذلك العطاء الجزيل ، وهل يجوز أن يكون ملك يرجع من البذل إلى سرفه ،

(٢) ما يكتحل به .

ومن الخلق إلى شرفه ، ومن الدين إلى كلفه ، ومن الملك إلى كنفه ، ومن الأصل إلى سلفه ، ومن النسل إلى خلفه .

فليت شعري مَنْ هَذِي مَآثِرُهُ مَاذَا الَّذِي بِيَلُوغِ النِّجْمِ يَنْتَظِرُ

المقامة النيسابورية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ بنيسابور ، يوم الجمعة ، فحضرت المفروضة ، ولما قضيتها اجتاز بي رجلٌ قد لبس دَنِيَّةً ^(١) ، وتَحَنَّكٌ سُنِّيَّةً ^(٢) ، فقلت لِصُلِّ بِجَنِي : من هذا ؟ قال : هذا سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجراذ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولصّ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئبٌ لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ، وقد لبس دَنِيَّةً وخلع دينيَّته ، وسوى طيلسانه ، وحرّف يده ولسانه ، وقصّر سبّاله ، وأطال حباله ، وأبدى شقاشقه ، وغطّى مخارقه ، وبيّض لحيته ، وسودّ صحيفته ، وأظهر ورعه ، وستر طمعه .

قلت : لعن الله هذا ، فمن أنت ، قال : أنا رجل أعرفُ بالإسكندري ، فقلت : سقى الله أرضاً أنبت هذا الفضل ، وأباً خلفَ هذا النسل ، فأين تريد ؟ قال : الكعبة ، فقلت بخٍ بخٍ بَأْ كُلِّهَا وَلَمَّا أَطْمَحَ ^(٣) ، ونحن إذا رفاق .

فقال : كيف ذلك وأنا مصعدٌ وأنت مصوبٌ ، قلت : فكيف تصعد إلى الكعبة ؟ قال : أمّا إنى أريد كعبة المحتاج ، لا كعبة الحجاج ، ومَشْعَرُ السَّكْرَمِ ،

(١) قلنسوة القاضى .

(٢) نسبة إلى أهل السنة .

(٣) يعنى زيارة الكعبة وثراها .

لَا مَشْعَرُ الْحَرَمِ ، وَبَيْتُ السَّبْيِ ، لَا الْهَدْيُ ^(١) وَقِبْلَةُ الصَّلَاتِ ^(٢) ، لَا قِبْلَةُ الصَّلَاةِ ،
وَمِنِي الضَّيْفُ ، لَا مِنِّي الْخَيْفُ ^(٣) ، قُلْتُ وَأَيْنَ هَذِهِ الْمَكَارِمُ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :
بِحَيْثُ الدِّينُ وَالْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ . وَخَذْتُ الْمَكْرَمَاتِ بِهِ مُورِّدُ
بَارِضٍ تَنْبَتُ الْأَمَالُ فِيهَا لِأَنَّ سَحَابَهَا خَلْفُ بْنُ أَحْمَدَ

المقامة الخلفية

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ : لَمَّا وَلَّيْتُ أَحْكَامَ الْبَصْرَةِ ، وَانْحَدَرْتُ إِلَيْهَا
عَنِ الْحَضْرَةِ ، صَحْبَنِي فِي الْمَرْكَبِ شَابٌّ كَأَنَّهُ الْعَافِيَةُ فِي الْبَدَنِ ، فَقَالَ : إِنِّي فِي
أَعْطَافِ الْأَرْضِ وَأَطْرَافِهَا ضَائِعٌ لَكِنِّي أُعَدُّ مُعَدَّ أَلْفٍ ، وَأَقُومُ مَقَامَ صَفٍّ ، وَهَلْ
لَكَ أَنْ تَتَّخِذَنِي صَنِيعَةً ، وَلَا تَطْلُبَ مِنِّي ذَرِيعَةً ، فَقُلْتُ : وَأَيُّ ذَرِيعَةٍ آكِدُ
مِنْ فَضْلِكَ ، وَأَيُّ وَسِيلَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عَقْلِكَ ، لَا بَلْ أَخْدَمُكَ خِدْمَةَ الرِّقِيقِ ،
وَأُشَارُكَكَ فِي السَّعَةِ وَالضِّيقِ . وَسَرْنَا ، فَلَمَّا وَصَلْنَا الْبَصْرَةَ غَابَ عَنِّي أَيَّامًا فَضُضْتُ
لِغَيْبَتِهِ ذَرْعًا ، وَلَمْ أَمْلِكْ صَبْرًا ، فَأَخَذْتُ أَفْتَشُ جُيُوبَ الْبَلَدِ حَتَّى وَجَدْتُهُ ، فَقُلْتُ :
مَا الَّذِي أَنْكَرْتَهُ وَلَمْ تَهْجُرْ ، فَقَالَ : إِنَّ الْوَحْشَةَ تَقْدَحُ فِي الصَّدْرِ اقْتِدَاحَ النَّارِ
فِي الزَّنْدِ ، فَإِنْ أَطْفِئَتْ نَارَتْ وَتَلَاشَتْ وَإِنْ عَاشَتْ طَارَتْ وَطَاشَتْ ، وَالْقَطْرُ إِذَا
تَتَابَعَ عَلَى الْإِنَاءِ امْتَلَأَ وَفَاضَ ، وَالْعُتْبُ إِذَا تَرَكَ فَرْخَ وَبَاضَ ، وَالْحُرُّ لَا يَعْلَمُ
شَرَّكَ كَالْعَاطَاءِ ، وَلَا يَطْرُدُهُ سَوْطُ كَالْجَفَاءِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ ، نَنْظُرُ مِنْ عَالٍ ، عَلَى
السَّكْرِيمِ نَظْرَ إِذْلَالٍ ، وَعَلَى اللَّثِيمِ نَظْرَ إِذْلَالٍ ، فَمَنْ لَقِينَا بِأَنْفٍ طَوِيلٍ ، لَقِينَاهُ
بِخَرْطُومِ فِيلٍ ، وَمَنْ لَحَظَّنَا بِنَظَرٍ شَرِّزَ ، بَعْنَاهُ بِثَمَنِ نَزَرٍ ، وَأَنْتَ لَمْ تَعْرِسْنِي لِيَقْلَعَنِي

(١) مَا يَسَاقُ مِنْ أَنْعَامٍ لِيَجِيَ بِهَا .

(٢) الْعَطَايَا .

(٣) بَلَدَةٌ قَرِبَ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ

غلامك ، ولا اشتريتني لتبيعني خدامك ، والمرء من غلمانه ، كالكتاب من عنوانه ، فإن كان جفاؤهم شيئاً أمرت به فما الذي أوجب ، وإن لم تكن علمت به كان أعجب ، ثم قال :

ظفرت يدا خلف بن أحمد إنه سهل الفناء مؤدب الخدام
أوما رأيت الجود يجتاز الورى ويحل من يده بدار مقام
قال عيسى بن هشام : ثم أعرض وتبعته أستعطفه وما زلت ألافه حتى
انصرف ، بعد أن حلف : لا أوردت من أساء عشرته ، فوهبت له حرمة .

٣ - الديوان

١ - من المديح

الملك السبّاق

قال يمدح أبا الحارث الفريغوني أمير جوزجان :

سل الملك الكريم إلام تبني وأين وقد تجاوزت السماء
أجدك لا يراك الله إلا علاء أو عطاء أو وفاء
ولو ذوّبتني ما كنت إلا ولاء أو دعاء أو ثناء
منحتك من سواء الصدر ودأ يكاد لفرطه يروى الظماء
أعجزني إذا احتكوا هناء وللكلبي إذا مرضوا شفاء !
جريت مع الملوك إلى مداها ففتهم سناء وارتقاء
فضلتهم ندى وفضلت مالا ومن طلب الثناء رمى الثراء

أمن جمع الدراهم واقتناها
 كمن جمع النهى ليسوا سواء
 يكاد التخت يورق جانباه
 ويقطر عوده ليناً وماء
 إذا خطرت له قدماك تسعى
 إلى أعواده أو قيل جاء

سيد الأمراء

وقال يمدح صاحب الجيش أبا على :

على أن لا أريح العيس والقتبا
 وألبس البید والظلماء واليلبا
 وأترك الخود معسولاً مقبلها
 وأهجر الكأس يغدو شرها طربا
 وطفلة كقضيب البان منعطفاً
 إذا مشت وهلال الشهر منتقبا
 تطل تنثر من أجفانها حبيبا
 دونى وتنظم من أسنانها حبيبا
 قالت وقد عقلت ذلي تودعنى
 والوجد يخنفها بالدمع منسكبا
 لا در درّ المعالى لا يزال لها
 برق يشوقك لا هونا ولا كسبا
 فقلت ردّى قناع الصبر إن لنا
 إليك أوبة مشتاق ومنقلبا
 أبى المقام بدار الذلّ لى كرم
 وهمة تصل التخويد والخبيا
 وعزّة لا تزال الدهر ضاربة
 دون الأمير وفوق المشتري طنبا
 يا سيد الأمراء أفر ، فما ملك
 إلا تمنك مولى واشتهاك أبا
 إذا دعتك المعالى عرف هامتها
 لم ترض كسرى ولا من قبله ذنبا
 أين الذين أعدوا المال من ملك
 يرى الذخيرة ما أعطى وما وهبا
 ما السيف محتطماً ، والسيّل مرتكماً
 والبحر ملتطماً ، والليل مقتربا
 أمضى شباً منك ، أدهى منك صاعقة
 أجدى يمينا ، وأدنى منك مطلباً

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكباً لو كان طلق الحيا يُمطرُ الذهباً
والدهر لو لم يخنْ، والشمس لو نطقَتْ والليث لو لم يُصد، والبحر لو عذبا
يا من يراه ملوك الأرض فوقهم كما يرون على أبراجها الشهباً
لا تكذبنْ خيرُ القول صدقه ولا تهابنْ في أمثالها العرباً
فما السموءلُ عهداً، والخليل قرى ولا ابن سعدة ندى، والشفري غلباً
من الأمير بمشارٍ إذا اقتسموا مآثرَ المجد فيما أسلفوا نهبا
ولا ابن حجر، ولا الديان يعشرني والمازني، ولا القيسي منتدبا
هذا لركبته، هذا لرهبته، هذا لرغبته، هذا إذا طربا

ابن السماء

وقال يملح الأمير العنبري :

حي الأمير العنبري وقل له يا كعبةً آمالنا حُجَّاجُه
أنت ابن بيت في السماء مكانه سقفاً وفوق المشتري معراجُه
أركبني فرس الكرامة ملجماً وعليك بعد إجمامه إسراجُه
ولئن فعلت لأشكرنك في الوري شكراً تموج عليكم أمواجُه
بمدائح لا ينمحي ديباجها وبخاطر لا ينتهي عجاجُه

أنا العبد

ومن قصيدة قالها في مدح الأمير أبي علي ابن ناصر الدولة :

وما حالُ صبٍّ بالعراق فؤادُه أسيرٌ وثاوٍ في خراسانَ سائرُه
على أن في قرب الأمير وبسطه لنا عَوْضاً لا يخلف الظنَّ ماطرُه
ألم تر أن الملك قرَّ قراره إذا زُيِّنت باسم الأمير منابرُه
سحابٌ ولكنَّ الدنانيرَ صوبُه وليثٌ ولكنَّ الملوكَ عقائرُه
وأبلج كالصبحٍ الأغرَّ جبينه ضياءٌ ، وكالليلِ البهيمِ عساكرُه
تذلُّ له الأقدارُ وهى جنودُه وتخدمه الأيامُ وهى عشائرُه
يموجُ به في الحربِ صافٍ أديمُه حفوزٌ لهاماتِ الملوكِ حوافره
ألم تر غرَّشَستانَ كيف تغوّرتْ معاقلها لما انتحتها بصائرُه
حنانيك حسّادى كثيرٌ كما ترى ومن حسنتُ عيناهُ تكثرُ ضرائره
ومن حلَّ من عليك حيثُ تحلّنى تصدّى له قاصى المحلِّ وقاصره
أنا العبدُ لا يأبى عليك ولاؤُه خلوصاً ولا تخطو ذراكَ مفاخره

بحر جواهر

وقال من قصيدة يمدح الأمير خلف بن أحمد :

وفى خَلَفٍ إن ألحقتنا يدُ المنى لنا خَلَفٌ لا يُخلفُ الظنَّ ماطرُه
فلما وردنا موسمَ الملك أقبلتْ وفودُ الغنى واستقبلتنا بوادِرُه
ولما انجلى بدر الدجى من جبينه أعرنا الثرى حرَّ الوجوه تعافره

جلبنا إليه الفضل وهو أميره
 وُبُحْتُ قُقال الناسُ من ذا؟ وقال من
 ولاحت لنا منه عيوبٌ كثيرةٌ
 ولادته في عالمٍ دونَ قدره
 وما ملك إلا يؤدّي خراجَه
 أيا جابر العظم المهيض لقاءه
 أأمرُ لي ببِدْرَةٍ كلَّ نظرةٍ
 فإن يكُ بحرٌ أغرق الناسَ ماؤه
 وبعنا عليه برّه وهو تاجرُه
 أجابهم : عبدُ الأميرِ وشاعره
 ولا عيبَ فيه غيرَ ما أنا ذا كره
 وفي زمنٍ مثل اسمه لا يقادره
 إليه على رِغمٍ ونحن نصادره
 ولا يجبر العظم الذي هو كاسره
 إلى الشغل باستيفاء ما أنت أمره
 فإنك بحرٌ أغرقتني جواهرُه

يد الندى والنار

وله من قصيدة في خلف بن أحد :

وليلٍ كذكره كعناه كاسمه
 شققنا بأيدي العيسِ بردَ ظلامه
 تزجّ بنا الأسفارُ في كل شاهقٍ
 كأنّ مطايانا شقارٌ كأنّا
 كأنّ نجومَ الليلِ نظّارةٌ لنا
 كأن نسيمَ الصبحِ فرصةٌ آيسٍ
 كأن سماءَ الدجن لولا انقشاعها
 كدينِ ابنِ عبّادٍ كإِدبارِ فائقٍ
 وبتنا على وعدٍ من السيرِ صادقٍ
 وترعى بنا الآمال من كل حائقٍ
 تمدُّ إلينَّ الفلا كفَّ سارقٍ
 تعجّب من آماننا والعواقبِ
 كأن سرابَ القَيْظِ خبلةٌ وامقٍ
 يَدَا خَلْفٍ عند النداء والصواعقِ

ابن خاقان

وقال يمدح يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين :

تعالى الله ما شاء	وزاد الله إيماني
أفريدون في التاج	أم الإسكندر الثاني
أم الرجعة قد عادت	إلينا بسليمان
أطلت شمس محمود	على أنجم سامان
وأمسى آل بهرام	عبيداً لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل	لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطاناً	على منكب شيطان
فمن واسطة الهند	إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند	إلى أقصى خراسان
على مقتبل العمر	وفي مفتتح الشان
فيوماً رُسلُ الشاه	ويوماً رُسلُ الخان
فما يعزب بالمعفر	بِعن طاعتك اثنان
أيا والى بغداد	ويا صاحب همدان
تأمل مائتي فيل	على سبعة أركان
يقتلن أساطين	ويلعن بثعبان
ويأجوج ومأجوج	من الجند تموجان

ب - من الرثاء

حزن وندم

وقال يرثي الأستاذ أبا بكر الخوارزمي :

حنانيك من نفس خافتِ ولييك من كمدٍ ثابتِ
 أبا بكرٍ اسمعْ وقل كيفَ ذا ولستَ بمسمةِ الصائتِ
 تحمّلتُ فيك من الحزنِ ما تحمّله أُنُك من صامتِ
 حلفتُ لقد متَّ عن معشرٍ غبيينَ عن خطرِ المائتِ
 يقولونَ أنتَ به شامتٌ فقلتُ الثرى بقمِ الشامتِ
 وعزّتْ عليَّ معاداتُهُ ولا متداركٌ للفائتِ
 وقالَ الأنامُ خلا الجوّ لي لعمرى ولكن على عانتِ
 أبيضُ ولكن إلى عاقِرٍ وأصفرُ لكن على ساكتِ

ج - من الاعتذار

مخلص الود

وقال قصيدة طويلة في الصحاح ابن عباد منها هذا الاستعتاب والاعتذار إليه :

أ كافي الكفاةِ أستبقِ مني ومن دمي حشاشةً مجدٍ في البلادِ مُشرِّدِ
 أفي موجب الفضل الذي أنتَ أهلهُ توعدُ مثلي ، أم قضيةٌ سوِّدِ
 أبعدَ مقاماتي لديكَ وهجرتي إليك ، وإنفاقي طريفي ومتلدي
 وجوابةً للأفق فيك طردتها غدت بين منشورٍ وبين مقصِّدِ
 وقفتُ بها أستطلع الرأي منشداً وقلتَ - وأعلى الله قولك - جوِّدِ

فأينَ زمانى بالخوافِ حضرتهُ
ومالى (وأبوابُ الرجا فيك جمةً)
ولا باعُ أُملى إليك بقاصرٍ
فماذا عسى الواشونَ خاضوا على دمي
وأيةَ نارٍ شَبَّها أَىَّ مُوقِدٍ
فإن كنتَ حقاً موعِدِ بكريمةٍ
وإن تَنوَّ تحريكاً وتهذيبِ جانبِ
حنانيك من ظنٍّ لمولاك جائِرٍ
ولم تمضها في مخلص الودِّ نيةً
ولا أنا إلا في ولائك محتبٍ
وعذرى عند الله فيك ممهَّدٍ
وعقد ولائى في ذراك مؤكَّدٍ
ولستُ لأنى واجدٌ منك مهرباً
ولكن سألِ العذرَ في كل حالةٍ
فتبدي لك الأيامُ ما أنا عنده

وَأينَ إلى البابِ الرفيعِ ترددى
وقفتُ ببابٍ من رجائك موصدٍ
ولا وجهُ أعمالى لديك بأسودٍ
ومن أَى وجهٍ ثارلى أَىَّ مُؤيدٍ
وأىَّ عظيمٍ هاجَ من أيما ددٍ
فرأيتُ في تعجيل يومى عن غدى
فقد صكَّ فى ذرعى وقدفُتْ فى يدي
ولبيك من رأى على العبدِ معتدٍ
يروح إليه الموت منها ويغتدى
ولا أنا إلا بالهوى لك مرتدٍ
وإن كان عند الناس غيرَ ممهَّدٍ
وإن لم يكن عقد المنى بمؤكَّدٍ
أَحَثُّ ركبى فدَفَدًا بعد فدَفدٍ
بشكرك فى يَوْمى مغيبى ومشهدى
(ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ)

د - من الفخر

صولة النحيف

وقال يفتخر موطئاً لمح الشيخ أبي نصر زيد :

خُلِقْتُ كما ترى صعب الثقافِ أَرَدُّ يدَ المعاندِ في الخلافِ
 ولى جسدٌ كواحدةٍ المشانِ له كبدٌ كمثلثة الأثافي
 هلمَّ إلى نحيفِ الجسمِ مني لتنظرَ كيفَ آثارُ النحافِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ طائِشَةً لظاها نتيجة هذه القصبِ العجافِ
 صحبتُ الدهرَ قبلَ نباتٍ فيه فلا تغررك خافية العداغِ
 نزلتُ من الزمانِ ومن بنيهِ على غصنين من شجرِ الخلافِ
 فلم أَصحبْ عدوًّا في صديقٍ ولم أَشربْ ذعافاً في سلافِ
 ولم أرَ غيرَ معتقٍ وجداً وبينهما خلافٌ في غلافِ
 على شفّتهما ضحكُ التهانِ وفي كبديهما وخزُ الأثافي

ه - من الشعر المطعم

قصيدة عربية فارسية

قَرَّةَ عَيْنِي بَدَا مَحَبَّتِي أَيْ فَلَسَا
 تَرِيدُ أَنْ تَقْتَلَنِي نَهْ دَرَسْتَ كَرْدِي دَر لَسَا
 وَأَنَّهُ هِيَ لَيْلِكَ أَنْ يَنْصَبُ دُونِي شَرَا
 أَمَا كَفَى صَدْعَكَ لِي إِلَى الرَّدَى مَعْتَرَا

وَأَنْتَى لَا أَرْقُدُ اللَّيْلَ وَأَرْعَى الْفَلَاسِكَ
كَأَنَّمَا أَلْتَحَفْتُ الْجَمْرَ وَأَعْلَوُ الْحَسِكَ
أَذَابَنِي فَرَطُ الضَّنَا وَهَدَّنِي طَوْلُ الْبَكَ
أُبْحَتَ رَوْحِي وَدَمِي بَنَى هَدَادَ رَوْحِكَ
وَرَنَهُ دَهَى بَوْسِهِ زَلْبَ يَهْلُ يَبُوسَمَ لَبِكَ
فَغَاضَهُ قَوْلِي لَهُ فَقَالَ بَسْ وَيَنَّهُ وَكَأ
تَرِيدُ تَقْبِيلَ فَمِي إِلَيْكَ لَا أُمُّ لَكَ
لَوْلَمْ يَنْمَ لَمْ يَحْتَلَمْ أَحْلَسْتَ كُلِّي فَارَكَ
يَاطِرَةً قَدْ سَلَبْتَ مِنَ الْغَرَابِ الْحَسِكَ
وَمَقْلَةً مِنْ نَفَثَتْ فِيهِ بِسَحْرِ هَلِكَ
هُوَ أَكْ إِذْ أَجْحَفَ بِي بِأَيِّ عَلَقٍ فَتَكَ
تَفْعَلُ الْخَاطُكُ بِي مَا تَفْعَلُ الْخَرُّ بَكَ
وَكُرْتُو دَادِمَ نَهْ دَهَى يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمَشْتَكِي
يَكْرَزُ جَامَهُ دَرَمَ سَسَى قَاضِي وَحِكَ
وَقَالَ إِذْ هَدَدْتُهُ سَبْحَانَ مَنْ أَرْفَعَكَ
قَاضٍ إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ يَصِيدُ السَّمَكَا
يَنْصَبُ فِي أَسْفَلِهِ لِكُلِّ حَوْتٍ شَبَكَا
أَفٍّ لِقَاضٍ يَبْتَغِي مِنَ الْمَعَاصِي دَرَكَا

المراجع

الكامل لابن الأثير

دروس التاريخ الإسلامي للخياط

يتيمة الدهر للثعالبي

ديوان الهمداني طبعة محمد شكرى المكي

المقامات والرسائل شرح الإمام محمد عبده ، والشيخ إبراهيم الأحمد
مع مراجعة طبعات لهما قديمة .

فهرست

الفصل الأول

عصر بدیع الزمان

- | | |
|----|-----------------------|
| ٥ | ١ - الحالة السياسية |
| ١٠ | ٢ - الحالة الاجتماعية |
| ١٢ | ٣ - الحالة الأدبية |

توضیحات (١) :

الفصل الثاني

بدیع الزمان في عصره

- | | |
|----|------------------------|
| | ١ - حياة بدیع الزمان : |
| ١٦ | ١ - نشأته |
| ١٩ | ب - في هراة |
| ٢١ | ٢ - رأى الكتاب فيه |
| ٢٢ | ٣ - خلق البدیع وخلقته |
| ٢٦ | ٤ - شخصيته |

ملاحظات (٢) :

الفصل الثالث

جوانب بدیع الزمان

- | | |
|----|-------------------|
| | ١ - آثار البدیع : |
| ٣٠ | ١ - رسائله |

صفحة

٣٤	ب - مقاماته
٣٧	ج - ديرانه
٣٩	٢ - الأديب السياسي
٤٠	٣ - الأديب الاجتماعي
٤١	٤ - طابعه الأدبي

الفصل الرابع

منتخبات من آثار بديع الزمان

١ - الرسائل :

(أ) من رسائله المدحية :

٤٦	سيرف الحق
٤٩	الأب والابن
٥٤	استعطاف

(ب) من رسائل العتاب والاعتذار :

٥٤	زهد واعتذار
٥٧	الأدب والذهب
٥٧	ملامة
٥٨	تشقيف وتقويم
٦٠	ذاقة وخصاصة
٦١	لا شجاعة

(ج) من رسائل القدح والذم :

٦٢	قاضى السوء
٦٧	جفيرة ونفار

(د) من رسائل السب والشتم :

٦٩	شكرى وسعاية
٧١	الرجه اللعيم

صفحة

٧٢	مجمع الرذائل
٧٢	تعريض
٧٣	ساكن الإصطبل

(هـ) من الرسائل الأهلية :

٧٤	إغراء
٧٤	غيرى خالك
٧٥	فضيلة القصد

٢ - المقامات :

(أ) من المقامات الأدبية :

٧٦	المقامة القرصية
٧٩	المقامة الجاحظية

(ب) من المقامات الفكاهية :

٨١	المقامة المضيرية
----	------------------

(ج) من المقامات القصصية :

٨٨	المقامة البشرية
٩٢	المقامة الأسدية

(د) من مقامات الكدية :

٩٧	المقامة المكثوفية
٩٩	المقامة الفزارية
١٠١	المقامة الوصية

(هـ) من المقامات المدحية :

١٠٢	المقامة الملوكية
١٠٤	المقامة النيسابورية
١٠٥	المقامة الخلفية

٣ - الديوان :

(ا) من المديح :

١٠٦	الملك السباق
١٠٧	سيد الأمراء
١٠٨	ابن السماء
١٠٩	أنا العبد
١٠٩	بحر جواهر
١١٠	يد الندى والنار
١١١	ابن خاقان

(ب) من الرثاء :

١١٢	حزن وندم
-----	----------

(ج) من الاعتذار :

١١٢	مخلص الرد
-----	-----------

(د) من الفخر :

١١٤	صولة النحيف
-----	-------------

(هـ) من الشعر المطعم :

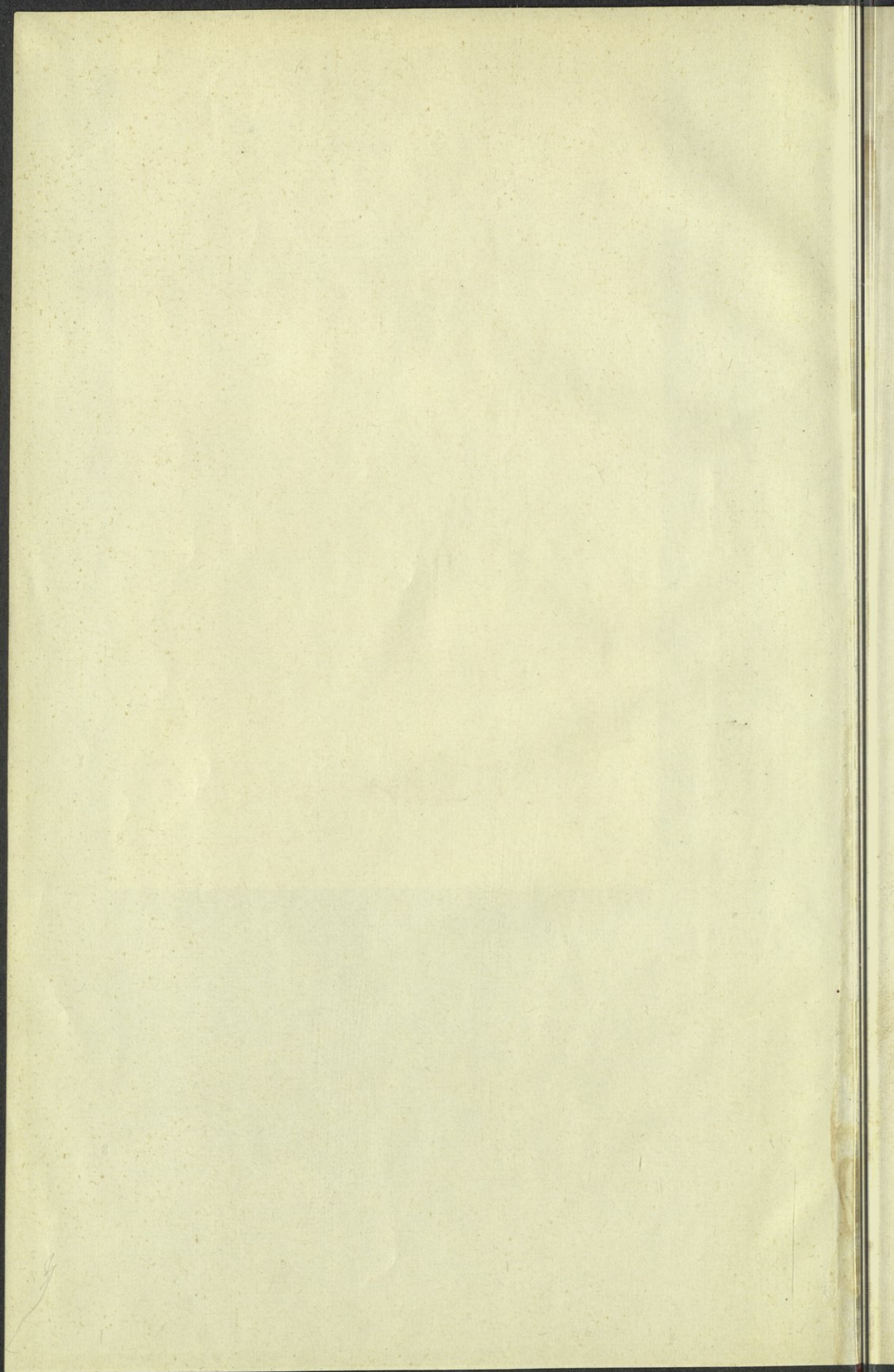
١١٤	قصيدة عربية فارسية
-----	--------------------

١١٦	المراجع
-----	---------

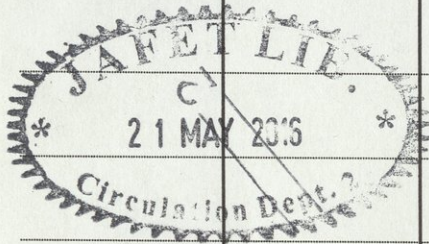
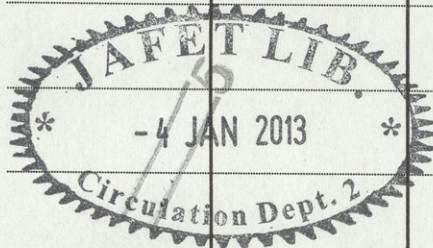
١١٧	الفهرست
-----	---------

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف

في شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٥٤



DATE DUE



892.78:H198YabA:c.1

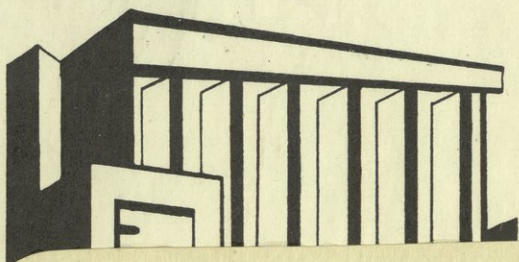
عبود، مارون

بدايع الزمان الهمداني

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01065129



892.78
H198 Yab A



892.78
H198YabA
C.1